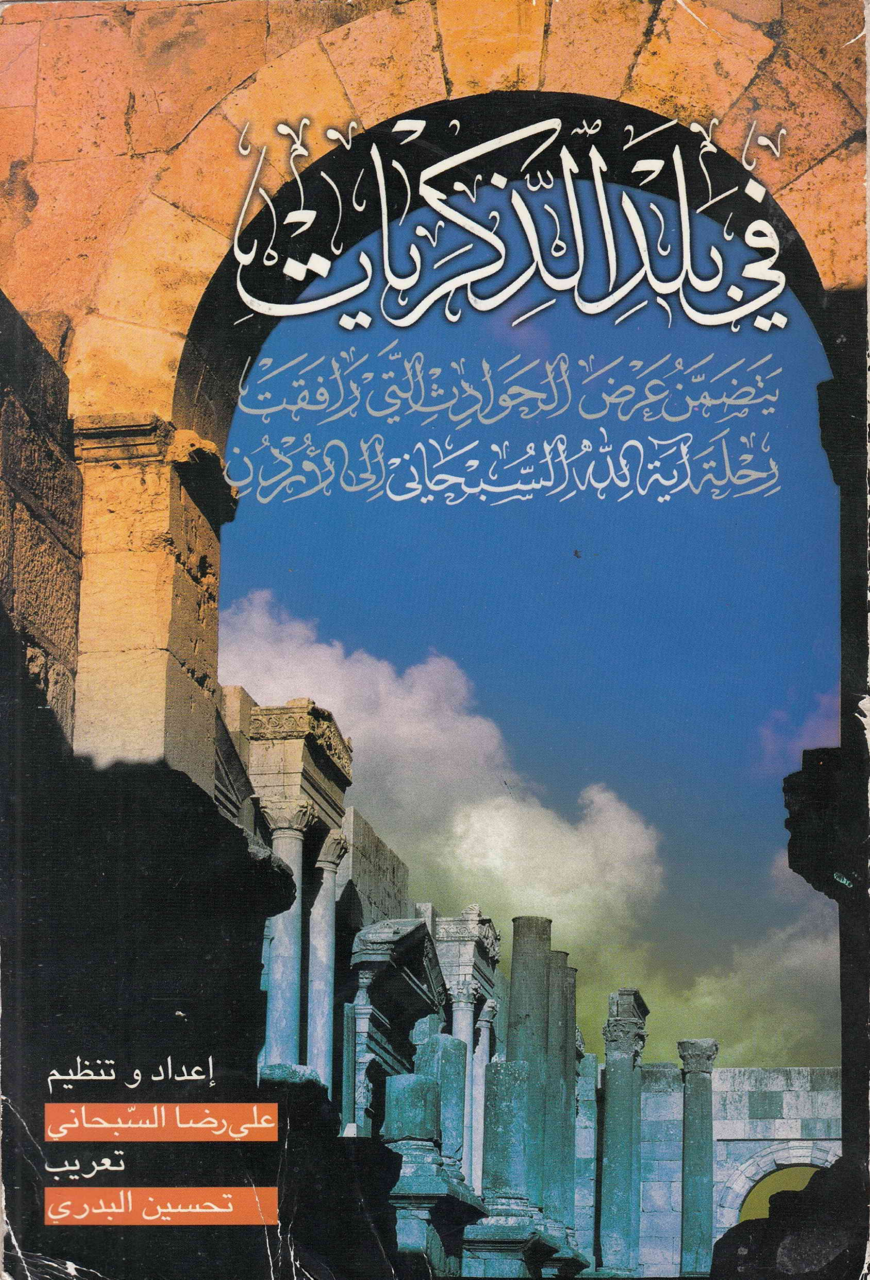

في بلد الذكريات
يتضمن عرض الحوادث التي رافقت
رحلة آية الله السبحاني إلى الأردن
إعداد و تنظيم
علي رضا السّبحاني
تعريب
تحسين البدري

في بلد الذكريات

سرد رحلة الفقيه المحقّق آية الله السبحاني

إلى المملكة الاردنية الهاشمية

اعداد وتنظيم

علي رضا السبحاني

تعريب

تحسين البدري

نشر مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

الناشر النموذجي
في الجمهورية الإسلامية الإيرانيّة

سبحاني تبريزي، جعفر، ١٣٠٨

في أرض الذكريات: يتضمن سرد الحوادث التي رافقت رحلة آية الله السبحاني إلى الأُردن، اعداد و تنظيم علي رضا السبحاني؛ تعريب تحسين البدري.

قم : مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام، ١٣٧٩، ١٨٨ ص.

ISBN 964-6243-99-1

فهرستنويسى بر اساس اطلاعات فيپا.

عنوان ديگر: في بلد الذكريات. عنوان اصلى : در سرزمين خاطره‌ها عربى.

١. اردن -- سير و سياحت -- قرن ٢٠. ٢. سبحانى تبريزى، جعفر، ١٣٠٨ - خاطرات. ٣. سفرنامه‌ها. الف. سبحانى على‌رضا، ١٣٥٣، گردآورنده. ب. بدرى، تحسين، مترجم. ج. مؤسسه امام صادق عليه السلام. د. عنوان. هـ. عنوان: في بلد الذكريات.

٤٠٤٣ د٢س/ ٢/ ١٥٣ DS ٩١٥/٦٩٥،٤٤ كتابخانۀ ملى ايران ١٤٤٤٧-٧٩م

اسم الكتاب: في بلد الذكريات

الموضوع: سرد وقائع رحلة آية الله جعفر السبحاني

اعداد وتنظيم: علي رضا السبحاني

تعريب: تحسين بدري

المطبعة: اعتماد - قم

التاريخ: ١٤٢١ هـ ق

الكمية: ٢٠٠٠ نسخة

الناشر: مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

Email: info@imamsadeq.org

http//:www.imamsadeq.org

توزيع: مكتبة التوحيد

قم - ساحة الشهداء ☎ ٧٤٥٤٥٧ و ٩٢٥١٥٢

فكس: ٠٠٩٨-٢٥١-٩٢٢٣٣١



في بلد الذكريات



﴿فذكِّر فَإِنَّ الذِّكرىٰ تَنْفَعُ المُؤْمِنين﴾

(الذاريات/ ٥٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الميامين.

أمّا بعد، فقد سنحت لي الفرصة في مرافقة سيدي الوالد(دام ظله) في رحلته العلمية إلى الأُردن بدعوة موجَّهة إليه من قبل بعض المسؤولين في وزارة الأوقاف الأردنيّة.

وكان الحافز لقبول تلك الدعوة ـ حسب ما استشففته من خطاباته ومحاضراته في المحافل العلمية ـ هي إظهار المشتركات التي تجمع الطوائف الإسلامية والتي هي أكثر ممّا تفرقهم. اضافة إلى الدفاع العلمي عن موقف الشيعة حيال بعض المسائل التي تنفرد بها بأُسلوب موضوعي وبلغة هادئة بعيداً عن التعصب والانحياز.

وقد كنت أُرافقه في كافة محاضراته ولقاءاته التي كان يجريها وأسجّل كلّ ما يدور بينه و بين الآخرين من حوار أو ما يلقيه من محاضرات.

فجاءت المذكرات تترى فعرضتها على سيدي الوالد فأصلح

ما أ صلح ثمّ قمت بتنظيمها واعدادها للطبع .ونشرت باللغة الفارسية ثمّ نقلها إلى العربية فضيلة الشيخ تحسين بدري (دام عزّه).

وختاماً أرى من الواجب عليّ أن أبين انّ المذكرات التي قمت باعدادها جاءت على لسان سيدي الوالد ليكون آكد في التأثير وأبلغ في البيان.

والله من وراء القصد

علي رضا السبحاني

١ رجب المرجب ١٤٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

قرن الاتّصالات هو أحد الأسماء التي أُطلقت على القرن الحالي (القرن العشرين)؛ وذلك لأنّه تيسّر خلال هذا القرن تناقل الأخبار والرسائل والأفكار المختلفة إلى أقصى نقاط العالم عبر وسائل من قبيل المذياع والتلفاز والمطبوعات والكتب، وقد أصبح الإنسان إثر ذلك مرمى لشتّى الخطابات الإيجابية والسلبية من الخطابات غير الأخلاقية للمحطّات التلفزيونية، والأفلام الغربية ومن الإعلام التبشيري للمسيحية في قلب إفريقية والعالم الثالث، والكراريس والكتب الوهابية الباثّة للفرقة في العالم الإسلامي، وتحريف سور القرآن المجيد في شبكة الانترنيت وأمثال ذلك؛ يا ترى ما هو موقعنا من التبليغ والإعلام وسط هذه التيارات الفكرية والأخلاقية السقيمة؛ وما القيمة التي نوليها لقضية التبليغ وبخاصة التبليغ في ما وراء حدود بلداننا ؟ !

لِمَ لم يفرّق كثير من المسلمين بين (الشيعة) و(الشيوعية)؟

لماذا لا زال بحث تكفير الشيعة ومجوسية الإيرانيين يُطرح على المنابر وفي المجالس في الدول الاسلامية؟!

لِمَ لا زلنا نشهد قتل الشيعة الباكستانيّين على يد عناصر الطائفة الوهابية المتعصبة؟!

لماذا يحمل أتباع الحركات الإسلامية في أذهانهم إبهامات وإشكالات عقائدية عن إيران الشيعية، رغم التقارب في المواقف السياسية؟!

أليس مخاطبو هذه الأسئلة هم العلماء الأعلام من المسلمين وبخاصة الشيعة منهم لكي يتجاوزوا إطار الدروس والبحوث الرائجة ويتسلَّحوا بسلاح اللغات الاجنبية وبعمق المعرفة للمذاهب والأديان الأُخرى لكي يواجهوا الانحرافات ويشبعوا ظمأ العالم المتعطّش لعلوم ومعارف أهل البيت الغنية.

ألا تستقبل أفكارنا المنابر الحرة للجامعات والمؤسسات العلمية والثقافية للعالم ؟!

إنّ تجربة الكاتب في عدة من أسفاره إلى الدول الإسلامية وغيرها أثبتت انّ الآذان الصاغية موجودة في جميع أنحاء المعمورة، وهي تستقبل خطبنا بشغف واحترام، وانّ القلوب المؤهّلة والمستعدة كثيراً ما تتحوّل وتنقلب بمجرد بلوغها معارف أهل البيت عليهم السلام ، كما أنّها تُدبر وتعرض إثر ذلك عن الإعلام الواسع وباهض الكلفة

للوهابية أعداء الوحدة الاسلامية.

إنّ الأردن من جملة الدول التي رغم إنّها متاخمة للسعودية وإسرائيل ، ورغم النفوذ التاريخي للاستعمار البريطاني فيها، تضم شعباً مثقفاً ومحباً للإسلام والوحدة الإسلامية، ويبدي حباً واحتراماً خاصاً للإيرانيين. ان نفوس هذه الدولة ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة، والمسلمون يشكّلون نسبة ٩٥٪منهم.

أضافني هذا البلد في سفرتين طالت كل سفرة عشرة أيام حصلت خلال سنتين آمل ان تكون مطالعة تجارب هذا السفر مفيدة للأساتذة والعلماء والطلاب المحترمين، وأن تكون حافزاً قوياً لتكثيف الجهود في مجال الإعلام والتبليغ المدروس والصادق والمباشر وغير الدعائي في الخارج.

من المؤسف جداً أن أقول : رغم وجود رغبة ملحّة في العالم للتعرّف على الشيعة (بعد قيام الثورة الإسلامية في إيران)، ورغم انّ الشيخ والشاب وبخاصة طبقة المفكّرين والدارسين أبدوا تلهّفاً للتعرف على هذا المذهب ، إلاّ أنّ قدرة الإعلام المضاد والحركة المدروسة لأصحاب الأقلام المأجورة ، بدرجة من القوة بحيث لا تسمح للناس في إعادة النظر في انطباعاتهم تجاه الشيعة، وقد أُغلقت بحيل متنوعة أبواب المعرفة الحقيقية أمام طلاب الحقيقة.

ونذكر هنا نماذج من تلك الموارد:

١. لقد كتب الإمام الخميني عام ١٣٦٣هـ.ق (المصادف ١٣٢٣ هـ.ش) كتاباً تحت عنوان "كشف الأسرار" دافع فيه عن النظام الفقهي والحقوقي والسياسي للإسلام، كما أجاب فيه على شبهات بعض الوهابيّين حول الإمامة والولاية وقضية التوسّل بأهل البيت عليهم السلام. وقد بيّن رجل التاريخ العظيم هذا، المواقف المنطقية والموضوعية للتشيّع من دون إساءة لأدب الحديث والتعرّض للآخرين بسوء، ولم يحرّض البعض ضد الآخر.

لكن من المؤسف انّ هذا الكتاب نقل إلى العربية مؤخراً، مع تحريف كثيرٍ ، بعيداً عن الأمانة الأخلاقية التى ينبغي رعايتها في النقل. انّ المترجم أو المترجمين قد دسّوا أفكار الغلاة في ذلك الكتاب مهما استطاعوا، وزرعوا بذلك بذور العداء والبغض بين الفرق الإسلامية. وقد قيل: إنّ ما يقرب من مائة ألف نسخة نشرت في الأردن فحسب.

لا شك في أنّ نشر كتاب كهذا بما تضمّن من تحريفات، يُنمي من الأفكار سقيمها ومعوجها في أذهان قرّائه، وبخاصة انّ أرضية ذلك موجودة منذ أزمان بعيدة.

بعد رجوعي من الرحلة الثانية من الأردن، بعث إليّ أحد خرّيجى الجامعة الأردنية رسالة مفصّلة ، أشاد بالمحاضرات والخطب التي ألقيتها والمساعي التي بذلتها من أجل وحدة المسلمين. وقد

طـرح في نهايـة رسـالتـه تسـاؤلات لا تتـلاءم مع دعـوتي للـوحـدة والتقـريب. وقـد ذكر انّ منشـأ هـذه التساؤلات متجـذّر في الترجمة العـربية لكتـاب "كشف الأسرار" ، مع أنّـه لا وجـود لأمثال هـذه المطالب في النسخة الفارسية من الكتاب.

٢. في وقت متقدّم من عصرنا هذا كـان أحد المرتزقة قد كتب أثناء الحرب وبـإيعاز من مـؤجّجي الحرب كتابـاً هو حسـب تصوّره (تصحيح لعقائد الشيعـة) ؛ وقد نشر هذا الكتـاب في أغلب الدول العربيـة بشكل واسع. وقد ذكر لي أحـد أعضاء المستشارية الثقـافية الإيـرانية في السـودان انّ مليوني نسخـة من هذا الكتـاب نشرت في مركز السودان، أمّا في النواحي الأُخـرى منه فستة ملايين، وفي سفرنا الأخير لـلأردن واجهنا بعـض التساؤلات (بعـد المحـاضرات التي ألقيناها) كانت مقتبسة كلّها من هذا الكتاب.

٣. قال لي أحـد أساتذة الجامعـة المغربية وهـو سنّي ، ومحبّ للجمهورية الإسلامية: إنّ الكتب التي تدوّن في رد عقائد الشيعة أو الثورة الإسـلامية؛ تطبع وتنشر بـرأسمال أمريكي. وأضـاف حتى أنّ بعضها تطبع في أمريكا نفسها وترسل من هناك إلى أماكن مختلفة.

مع الالتفات إلى وجود هكذا أرضية من سوء الظن، فإنّ إزالة الرواسـب العالقـة في أذهان مخالفي الثـورة الإسلاميـة ، يعدّ عمـلاً صعبـاً للغايـة ؛ ولا يمكن الحصـول على نتيجـة دون القيام بنهضـة

شـاملة ومـدروسة. نعـم إنّ إرسال المبلّغين و إيجاد معـارض للكتب وتبادل الـزيارات الطلاّبية والجامعيـة والأساتذة ،وتقويـة المرسلات الباثة لأمواج الراديو والتلفـاز، وبث الخطب والمحاضرات باللغات المختلفة، هذه كلّها قد تكون مؤثرة في هذا المضمار.

إنّ الكاتب رغم اعتقاده بمنطق الشيعـة ولزوم الدفاع الدائم عن حقوق أهل البيت عليهم السلام يعتقـد انّ التقريـب بين المذاهب مبـدأ صحيح، وهو يتبـع في هذا المجال أعاظم الشيعـة ، ويعتقد انّ تجلّي منطق الحق في جو من التفاهم أكثر إمكاناً.

بالطبع لا نقصد من التقريب ، الوحدة الحقيقية بين مذهبين، بأن يتخلّى كل مذهب عن معتقداتـه الخاصة به وينضوي تحت لواء مـذهب آخـر . وذلـك لأنّ هـذه المسألـة في الظـروف الحاليـة مـن المحالات العـادية. و إذا أمكـن التوحّـد الفكري في بعض المسـائل الفرعية ، فإنّ تحقيق الوحدة في القضايا الأرفع مستوى ، غير محتمل. بل انّ الهدف من التقريب هو تنبيـه الفريقين با لمشتركات الكثيرة في المجالات العقائدية والفقهية والأخـلاقية، وهي مشتركات يمكن أن تشكّل حلقة اتصـال وثيقة بين المسلمين ؛ لكي تجعل منهـم قوة في مختلف المجـالات ولا سيما حفظ مصـالحهم الـذاتية، وقطع أيـادي المستعمرين من الدول الإسلامية.

نقدّم هـذا الكتاب للقـرّاء الأعزّاء في سبعـة فصول؛ وأشكـر نجلي "علي رضـا" الذي رافقنـي في سفري هـذا، ونظّم ودوّن هـذا الكتاب بأحسن وجه وله بفضل الله مستقبل زاهر.

جعفر السبحاني

قم ـ مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

ربيع الأوّل ١٤٢٠ هـ. ق

الفصل الأوّل

الالتقاء بالشخصيات

بعد مضي سنتين من رحلتي الأُولى، دُعيت مرة أُخرى للمملكة الأُردنية الهاشمية، وقد لبّيت الدعوة ، وكان انطلاقي بتاريخ ١ / ٤ / ١٩٩٨م الموافق للثالث من محرم عام ١٤١٩هـ.ق، وقد غادرت المطار آنذاك قاصداً استنبول أوّلاً، ثم من استنبول إلى عمّان. وقد توقفت فترة قصيرة في استنبول . وقد وصل خبر سفري للأُردن إلى أعضاء قنصلية الجمهورية الإسلامية الإيرانية في استنبول، فجاءوا لاستقبالي في المطار، وقد غادرنا المطار باتجاه القنصلية للاستراحة وإقامة صلاتي الظهر والعصر.

تقع القنصلية الإيرانية في استنبول في القسم الأُوروبي من المدينة، وهي تشرف على البحر الأسود، وعلى حركة السفن التي تعبر مضيق البسفور مارّة بالبحر الأسود قاصدة البحر المتوسط. انّ هذا المنظر الرائع أضفى روعة وعظمة خاصة على هذا المركز السياسي.

وبعد ما نلنا قسطاً من الراحة، قصدنا برفقة الأصدقاء المطار مرة أُخرى.

ارتقينا سُلَّم الطائرة بعد أداء المراسم القانونية، وقد تركنا المطار باتجاه الجنوب. وباعتبار أنّ الفصل لم يكن فصل سياحة، فالطائرة كانت تبدو خالية وأكثر المسافرين كانوا أردنيين أو فلسطينيين. وكانت تقارير عن مسير الطائرة تعرض على شاشة التلفاز. وعندما تخطّت الطائرة سماء القدس ساد الطائرةَ جوٌّ ملؤه الشوق والرغبة لرؤية القدس ولو من السماء، لذلك كان المسافرون ينظرون من نافذة الطائرة، بعضهم قائمون وآخرون جالسون، وقد ارتفعت آنذاك صرخات الحسرة والآهات والويل والضجر من القادة الذين سلّموا القدس بكلتا أيديهم.

بعد دقائق ، حطت الطائرة في مطار عمّان، وكان في استقبالنا هناك كل من نائب وزير الأوقاف السيد (عبد الفتاح الصلاح) وعدد من مسؤولى تلك الوزارة، وكذلك السفير المحترم للجمهورية الإسلامية السيد محمد علي السبحاني[١] وعدد من أعضاء السفارة.

وفي صالة استقبال المطار شكرت جميع الأعزّة الذين تحمّلوا

١. إنّ السفير أخي في الدّين ولا علاقة نسبية فيما بيننا.

عناء المجيء ، وكذا السيد عبد الفتاح الصلاح الذي كان يحمل رسالة شكر من وزير أوقاف الأردن السيد (عبد السلام العبادي). وبعد ذلك توجهت إلى السفارة لأجل الإقامة هناك ترجيحاً لها على الإقامة في الفندق.

إنّ للاحتكاك بالشباب الغيور في السفارة لذّة خاصة لاسيما وانّ سفرتنا تزامنت مع أيام العزاء على الإمام الحسين عليه السلام.

وكان الجميع يتوقع مني الحديث عن نهضة الحسين ليلياً بعد إتمام البرامج الرسمية وإقامة صلاة الجماعة. وكان منطق الجميع هناك هو: (الإسلام، محمدي الحدوث، حسيني البقاء).

إنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم غرس بذرة الإسلام، وسقاها ابنه سيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام بدمه ودماء أعزّته. ولولا تلك الدماء لجفّت شجرةُ الإسلام وما كان لها الآن أثر يذكر.

إنّ يوم السبت ٢/ ٤/ ١٩٩٨ م كان أوّل يوم من وصولي لعمّان وقد تزامن مع يوم استقلال الأردن.

لقد نال الأردن الاستقلال عام ١٩٢٢ م الموافق ١٣٤٣هـ.ق وقد كان "الأمير عبد الله" نجل "الشريف حسين" أوّل ملك لهذه الدولة، وباعتبار انّ ذلك اليوم كان عطلة، فقد تمت بعض اللقاءات مع بعض الشخصيات داخل السفارة.

اللقاء مع رئيس تحرير المجلة الفصلية "آفاق الإسلام"

إنَّ الدكتور عمر المدني رئيس تحرير المجلة الفصلية "آفاق الإسلام" من الشخصيات المعروفة في الأردن.

إنّ الفصلية المذكورة تطبع على أوراق صقيلة ملوّنة وبأعداد ضخمة نسبياً (١٥٠٠٠ نسخة). ويتحلّى رئيس تحريرها بسعة صدر بحيث لا يرى نفسه ملزماً للترويج إلى مذهب خاص على حساب مذهب آخر.

لقد طلب مني في رحلتي الأُولى أن اكتب مقالة عن المذهب الجعفري لكي تنشر في المجلة، وقد قال: لقد عرضت السيرة الذاتية لزعماء المذاهب الأربعة في هذه المجلة، وأنا أرغب في التعريف بهذا المذهب باعتباره أحد المذاهب الفقهية الإسلامية. وقد أضاف: إنّك تفوّهت أثناء خطابك في مؤسسة "عبد الحميد شومان" بجملة أسرّتني حيث قلت:

"إنّ المسلمين لم يختلفوا في نفس النبي والكتاب المنزل عليه، بل اختلفوا فيما روي عنه"[1]. لذلك أرجو منكم تحمّل أعباء كتابة مقالة في تعريف الشيعة ؛ وأنا من جانبي أُعاهدكم على طبعها

١. انّ منشأ هذه المقولة قول الإمام علي عليه السلام: «اختلفنا عنه، لا فيه وأنتم اختلفتم فيه». بعد ما قال له بعض اليهود: ما دفنتم نبيكم حتى اختلفتم فيه.

ونشرها على صفحات هذه المجلة.

بعد رجوعي من السفر كتبت مقالاً يتناسب مع المجلة، عرّفت فيه الشيعة وأرسلته للمجلة عن طريق السفارة الإيرانية. وقد وفى هو بوعده حيث نشر المقال في هذه المجلة الفصلية في العدد رقم ١ من السنة الخامسة المصادف آذار ١٩٩٧م، وقد أثبت الدكتور عملياً ومن خلال ذلك انّه يرغب في التقريب بين المذاهب رغبة جدية.

وقد طالبني في لقائه الثاني بشيئين وقال:

أوّلاً: لقد اشتركت في مؤتمر الزواج المدني [١] الذي انعقد في بيروت العام الماضي، وقد تحدّثت فيه آنذاك عن الزواج المؤقت، إلاّ أنّي ما استطعت أداء المطلب حقّه، وما بيّنت واقع المسألة وعلل تشريعها بالشكل المطلوب بحيث يقع موقعه في أذهان المستمعين؛ وفي هذا المضمار طلب مني أن أكتب مقالاً أتناول فيه موضوع "الزواج المؤقت"، وان أتعرّض للمواضيع التالي ذكرها وأشرحها:

حدود الزواج المؤقت وشروطه.

دليل شرعيته من الكتاب والسنّة.

---

١. المراد من هذا هو الزواج الذي تلغى في شرعيّته قيد المذهب، بحيث يستطيع المواطن اللبناني الزواج من البنت التي يرغب فيها سواء كانت من نفس الدين أو لا مهما كان مذهبه، مثلاً زواج المسلم من المسيحية.

علّة الزواج وحوافز تشريعه.

ثانياً: بما انّ للثورة الإسلامية تأثيراً بالغاً في مجال توعية المسلمين وبما انّها حرّضتهم للرجوع إلى الذات؛ أرغب كثيراً ان تنشر السيرة الذاتية لمؤسس الثورة الإسلامية الإمام الخمينى ﷺ في مجلة "آفاق الاسلام" . ثم أشار إلى رؤوس المطالب التي ينبغي رعايتها في ترجمة هذه الشخصية.

ونحن بدورنا قبلنا تنفيذ كلا الطلبين.

أذكر هنا انّ السيد المدني نشر مؤخّراً كتابين يحملان عنوان "المذاهب الخمسة" و "دعاة الاصلاح"؛ وقد استفاد الكثير في الأوّل من مقالتي عن المذهب الجعفري.

أمّا الكتاب الثاني فقد دوّنه على غرار كتاب (رجال النهضة) لأحمد أمين المصري (المتوفّى١٣٧٢هـ ق) مستخدماً نفس الطريقة والاسلوب في التدوين التي استخدمها أحمد أمين، بحيث عد كلا المؤلّفين (محمد عبد الوهاب) من رجال النهضة ودعاة الإصلاح.

باعتبار قدم العلاقة بيننا ذكرت له: رغم انّي أُثمّن عملك هذا باعتبار الإشارة إلى الشخصيات والعظماء المصلحين في المجتمع، إلاّ أنّه يتضمّن إشكالين:

١. تعرّضتم لشخصيات أمثال: جمال الدين الاسد آبادي

(المتوفّى ١٣١٦هـ)والشيخ محمد عبده (المتوفّى ١٣٢٣هـ)وعبد الرحمن الكواكبي (المتوفّى ١٣٣٦هـ)وواعتبرتموهم زعماء للإصلاح (وأنا اثمن ذلك كثيراً)؛ لكن لِمَ ضمَّنتم كتابكم شخصاً عادياً يحمل مستوى واطئاً جداً من المعلومات الكلامية والفلسفية والفقهية، واعتبرتموه مصلحاً؟ رغم انه لم يفعل شيئاً إلاّ بثّ الفرقة والاختلاف في العالم الإسلامي. فهو بدل ان يعرّف التوحيد والشرك تعريفاً منطقياً، اعتبر أي حركة باتجاه اليمين أو اليسار تكريماً للعظماء شركاً؛ وتغافل بالكامل عن مقامات الأنبياء والأولياء!!

٢. اذا اعتبرتم شخصيات مثل الأسد آبادي وتلامذته من ضمن المصلحين؛ لِمَ لم تتعرضوا لعلماء كبار من أمثال : (الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والسيد عبد الحسين شرف الدين وآية الله البروجردي والشيخ محمد تقي القمي(من الشيعة) ومحمد المدنى ـ رئيس تحرير مجلة التقريب ـ والشيخ شلتوت والشيخ عبد الحميد شيخ الأزهر(من أهل السنّة)؟ رغم انّهم رفعوا راية الإصلاح منذ عام ١٣٦٥ هـ وحتى نهاية القرن الرابع عشر وتزعموا الإصلاح والتقريب آنذاك؟

لقد فرّ من الإجابة عن السؤال الأوّل، إلاّ أنّه قال في الإجابة على السؤال الثاني: ما كنت عالماً حقاً بنشاطات دار التقريب وإنجازاته الإصلاحية.

ذكـرت له انّ مجلـة دار التقـريب التـى كانـت تطبع في مصر لسنـوات متمادية، أُعيـد طبعهـا في طهران . وسـأطلب من سماحـة الشيخ واعـظ زاده الـذي هـو نفسـه من دعـاة التقـريـب ورجـال الإصلاح أن يبعث لكم هذه المجلة لكي تطّلعوا عمّا فعلته وأدّته هذه الشخصيات السنية والشيعية من نشاطات في مسألة التقريب.

تم اللقـاء ؛ وقد غـادر السفـارة مؤكـداً على إرسال المقـالتين اللّتين طالبني بهما.

اللقاء بالشيخ حسن السقّاف

كان لنا لقـاء مع الشيخ حصل بعد مغادرة رئيـس تحرير مجلة " آفاق الاسلام " .

إنّ الشيخ من عشيرة " سقاف " ولها أفخاذ في الحجاز واليمن والأردن. يرجع نسبه إلى علي بن جعفر الصادق عليه السلام انّه عالم وله باع في علم الحديث ، ولـه اطّلاع واسع خصـوصاً فيما يرجـع إلى رجال الصحاح ومسانيد أهل السنّة؛ وله في هـذا المجال تأليفات عديدة. وقد درس علوم الحديث في المغرب . انّه من المعتدلين فكرياً، ويحب أجـداده حبّـاً جمّاً. انّه حـامل لـواء الجهـاد ضـد الوهـابيـة في مجال التجسيم و إثبات الجهة للّه.

وبسبب ما كتبه من نقود على كتب ناصر الدين الألباني (وهو

من السلفيّين الـوهابيّين) أثار غضـب الوهابيين إلى درجـة لم يسمح لورود كتبه إلى السعودية.

" ناصر الـدين الألبـاني " محدِّث طاعن السـن له من العمـر ٨٤سنة، عالم بالحديث ، ومن الناحية الفكـرية يعد وهابياً بالكامل؛ وقد سعى كثيراً لترويج فكرة التجسيم والجهـة للّه. و إنكار فضائل أئمة أهل البيت عليهم السلام .

وهو بذي ء اللسان تجاه علماء الشيعة.

إنّ ممارسته الطويلة لعلم الحديث جعلت منه عا لماً ملمّاً إلاّ أنّ إلمامه مقترن بـالغرور. وما كتبـه السيد السقّاف مـن ردود وانتقادات على كتبـه حطّمت غـروره بـالكليـة وأفشت تنـاقضـاتـه وأخطـاءه والكاتب لهذه السطور طالع له بعضاً من كتبه واستفاد منها.

إنّ السيد السقّـاف زار طهران وقم في العام الماضي، وكـان له عدة لقاءات مع شخصيات الحوزة وعلمائها.

كما أنّـه حضر مجلس الـدرس الصبـاحي للكـاتب، وامتـدح طريقـة تدريس الشيعـة . ثم زار مكتبة آيـة الله المرعشي ومـؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ، واطّلع على مشاريع التحقيق في المؤسسة.

لقد ذكـرت له انّه قـد دُوِّن كتابـان يحملان عنوان التـوحيد في عصر واحـد (وهو القـرن الـرابع الهجـري)، أحدهما لابـن خزيمـة

السلفـي السنّي (المتوفـّى ٣١١هـ)، والآخـر للصـدوق الشيعـي (المتوفّى ٣٨١ هـ) ، واذا قـارنت بين الكتابين لوجـدت الفرق بينهما؛ فالأوّل يؤيـد ويدعو للتجسيم والجبر والجهة لله، والثـاني يدعو إلى التنزيه ويثبت الاختيار وينفي الجهة عن الله.

ارتضى السقّاف حديثي، وقد أعددت كتاب توحيد الصدوق وأرسلته له. وقد أكد في لقائه هذا على ضرورة مواجهة إعلام الوهابية مع نعته لها بأنّها حـركة آخذة بالأُفول ولا يـرتضيها العلماء والمثقفون بل وحتى الحكومـات. وأضاف بأنّه عـلاوة على طبعه بعض الكتب التى تنـاولت ذات الموضـوع ، لـه مجالس مستمـرة مع أسـاتذة فـرع الإلهيـات لجامعـات الأُردن، أهديـت لـه مجمـوعة مـن تأليفـاتي كما تحدّثت معه بعض الشي ء حول (الحد المنطقي للتوحيد والشرك).

ونختم هـذا الفصـل بـالكـلام عن زيـارتي لغـار أصحـاب الكهف.

زيارة غار أصحاب الكهف

إنّ غـار أصحاب الكهـف يقع في ضـواحي عمّان في منطقـة تحمل اسم "أبو علندا" وقد كانت الزيارة في يوم السبت.

إنّ قصـة أصحـاب الكهف جـاءت في الآيـات ٩ ــ ٢٦ من سورة الكهف؛ وهي قصة مثيرة جداً، وقد طرحها القرآن كدليل على

إمكانية المعاد. يقول القرآن في هذا المجال:

﴿وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[١] لكنّه لم يحدد المكان الدقيق للغار؛ لذلك كانت قضية محل الغار محط اختلاف المؤرّخين.

كان يعتقد لفترة انّ المراد من الغار هو غار "افسوس" الذي يقع في تركيا ويبعد عن أزمير ٧٣ كيلومتراً، قرب قرية "اياصولوك"، فوق جبل "يتايرداغ". إلاّ أنّ المحقّقين يعتقدون انّ ما ورد في القرآن من علائم للغار لا تنطبق مع مواصفات غار "افسوس".

ويعتقد البعض الآخر ان محل الغار في سورية؛ إلاّ أنّ الكاتب لا علم له بتفاصيل هذا القول.

إنّ اكتشافاً ثالثاً حصل في عام ١٣٨٢ هـ. ق الموافق ١٩٦٢ م في الأردن في منطقة باسم "رجيب" (يبدو انّه تلفّظ عامي للرقيم الذي ورد في القرآن) لفتت أنظار المحقّقين نحوه.

إنّ المكتشف هو عالم الآثار "رفيق وفاء الدجاني" وله كتاب يحمل عنوان "اكتشاف كهف أهل الكهف" نشر عام ١٩٦٤م. يبدو انّ علائم الغار التي وردت في القرآن تنطبق على هذا الغار وذلك للأسباب التالية:

إنّ أطراف الغار خالية من أي شيء يمنع من سطوع الشمس

---

١. الكهف: ٢١.

عليه من جهات مختلفة.

باب الغار باتجاه الجنوب (نوضح هذا كالتالي):

عند الدخول إلى الغار نرى منصّتين في كلا جهتي الغار، طول كل منهما ٣ أمتار وعرض كل منهما متران وفيهما سبعة أو ثمانية قبور. وعلى جدران الغار كتابة باللغة اليونانية يصعب قراءتها، وفوق الجبل توجد صومعة أصبحت حالياً مسجداً.

إذا وقفنا أمام باب الغار فسنرى الشمس تطلع من جهة اليمين وتميل تدريجياً نحو اليسار.

يقول القرآن في هذا المجال:

﴿وَتَرَى الشَّمْسَ إِذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ... ﴾.[1]

لكن ما المقصود من ذات اليمين وذات الشمال؟ هل هما الجهتان بالنسبة لمن كان في الغار وهو آخذ بالخروج منه؟ أم هما جهتان بالنسبة لمن كان خارجاً عن الغار آخذاً بالدخول إليه؟

يبدو ان الاحتمال الثاني أظهر؛ وذلك لأنّ الخطاب رغم انّه متوجّه إلى الرسول ﷺ لكن من الواضح انّ المقصود بالخطاب كل من أراد زيارة الغار وأراد دراسة ذلك المكان وأخذ العبرة منه. وإذا

١. الكهف: ١٧.

كان هذا الشخص هو المقصود فإنّ جهتي اليمين والشمال هما جهتيه، باعتباره واقفاً أمام باب الغار ناظراً إليه.

وشاهد هذا الحديث هو قول القرآن: ﴿**وترى الشمس إذا طلعت**﴾ فإنّ تطبيق هذه الآية على الناظر إلى الغار من الخارج أوفق من تطبيقها على الداخل في الغار وقد خفيت عليه الشمس والقمر.

ومع الأخذ بالمواصفات السابقة ، فانّ الشمس تطلع من يمين الآخذ بالدخول ، وتميل إلى اليسار تدريجياً ، وفي النهاية تقطع الغار من جهة يسار الآخذ بالدخول ثم تميل نحو المغرب.

إنّ الغرض من بيان كيفية طلوع الشمس وغروبها ، هو بيان انّ نور الشمس ما كان ينفذ إلى بطن الغار . وذلك لأنّ الشمس تسطع أُفقياً في طرفي الصبح والغروب ، وتسطع عمودياً ظهراً، وفي النهاية انّ نور الشمس لا ينفذ في الغار الأمر الذي يؤدّي إلى تعفّن الأجساد. على أي حال سواء كان رأينا صائباً أم لا ، فمن المؤسف هنا هو انّ حكومة الأردن أهملت هذه الثروة إلاّ المقدار القليل، رغم انّه بالإمكان أن يكون مورداً مالياً ـ على أقل تقدير ـ فانّه يفقد العناية الكافية . فالمكان يفقد وسائل الراحة والإمكانات الرفاهية ولا نجد له طريقاً محدّداً، لذلك فهو لا يلفت أنظار السياح واهتمامهم إلاّ ما قلّ.

لقد عرضت هذه القضية على وزير الأوقاف السيد عبد السلام العبادي ، فتجاوب معي وأضاف: إنّ خطة بناء هذا الأثر

داخل ضمن مشاريع الحكومة.

انقضى يوم السبت ، وقد أُعلن عن البرامج التالية للأيام المقبلة:

١. لقاء الدكتور عبد السلام العبادي وزير الأوقاف.

٢. زيارة مؤسسة آل البيت (المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية).

٣. لقاء مدير جامعة مؤتة، وإلقاء محاضرة في الجامعة المذكورة.

٤. لقاء مدير جامعة الأردن وإلقاء محاضرة في الجامعة المذكورة.

٥. لقاء مدير جامعة اليرموك وإلقاء محاضرة في الجامعة المذكورة.

٦. لقاء مدير جامعة جرش وإلقاء محاضرة في الجامعة المذكورة.

٧. إلقاء محاضرة على أساتذة وأعضاء الهيئة العلمية لجامعة أهل البيت عليهم السلام.

٨. إلقاء محاضرة على أئمة الجماعات في الأردن في مسجد الملك عبد الله.

وقد حصلت بحمد الله وفضله جميع هذه اللقاءات والمحاضرات، يأتي الحديث عنها تدريجياً.

الفصل الثاني

زيارة تفقدية لجامعة مؤتة

ألف : زيارة أكبر مسجد في الأردن

إنّ الأُمور الخيرية والشؤون الدينية في أغلب الدول العربية تعدّ من وظائف وزارة الأوقاف. إنّ إدارة المساجد وتعيين الإمام والخطيب والمؤذِّن، وبث الآذان في الأوقات الخمسة، وطبع ونشر القرآن، وتربية القرّاء، والقضايا المتعلّقة بالحج، وجميع الأُمور الخيرية حتى جمع الزكاة، تعدّ هذه كلّها من شؤون وزارة الأوقاف. ويتمتع وزير الأوقاف من هذا الجانب بصلاحية واسعة؛ وهو في الحقيقة حامل لواء الوجاهة الدينية للبلد.

لأجل مراعاة أُصول الضيافة وتكريم الضيف جرى لقاء مع وزير الأوقاف المحترم الدكتور عبد السلام العبادي بصحبة سفير الجمهورية الإسلامية في صالة المسجد والمركز الثقافي للملك عبد الله، وهو أعظم وأجمل مسجد في الأردن.

في بداية هذا اللقاء، رحّب الدكتور وزير الأوقاف بالضيوف الكرام وأعرب عن سروره لتطوّر العلاقة بين الدولتين الإسلاميّتين، وطلب منا تفقّد معرض القدس الواقع في أطراف المسجد؛ كما أشار إلى نقاط أهمها ما يلي:

ألف: رغم أنّ القدس الشريف يرزح تحت نير الاحتلال الصهيوني؛ إلاّ أنّ المسجد الأقصى والمراكز الدينية للقدس، والأوقاف في الضفة الغربية كلّها تحت إشراف الحكومة الأردنية من الناحية القانونية ولا زالت هذه المراكز تدار من قبلنا، ولدينا ٧٠٠ موظف تابع لوزارة الأوقاف مستقر في القدس يديرون المراكز الدينية هناك ويشرفون عليها. ثم أشار إلى نموذج المسجد الأقصى الذي كان أمامنا، وأرانا المواقع التي هدّمها الصهاينة، وقال: إنّ هذه المواقع ترمّم من قبل الحكومة الأردنية. وأضاف: إنّنا نرحب باقتراحات كافة فنّاني الدول الإسلامية ولاسيما إيران لأجل ترميم هذه المواقع، وقد دعونا البعض لأجل ذلك.

ب: إن عملية جمع الزكاة تحظى بأهمية كبيرة في الأردن، ويتم ذلك كله تحت إشراف وزارة الأوقاف؛ وتصرف الزكاة في مواردها المعيّنة، منها مراكز الأيتام، ثم أشار إلى أنّ هذه المراكز تتولّى رعاية وتربية الأيتام والأطفال الذين يفقدون المعيل.

ج: إن أماكن الزيارة تعدّ جزءاً من الحضارة والثقافة

الإسلاميـة رغم ما يعتقده ويحملـه بعض الفرق من أفكـار تجاه هذه الأماكن والأبنية ؛ و إن دولة الأردن تهتم بإعادة بناء هذه الأماكن وقد بادرت حـالياً في إعـادة بناء مقـام شهداء مؤتـة وبعض الصحـابة، وصرفت الدولة حتى الآن مبالغ طائلة في هذا السبيل.

نقلـت أكثـر صحـف الأردن الصـادرة يـوم الاثنين الموافـق ١٩٩٨/٤/٤م خبر لقـائي مع وزير الأوقـاف وضمّنت الخبر صـوراً للقاء.

توجّهنا في نهاية المطاف إلى متحـف المسجد، وهو يتكون من قسمين: قسم يختص بالآثار الإسلامية على مرّ قرون. والقسم الآخر يضم ما أُثر من وسائل عن الملك عبد الله نجل الشريف حسين.

على أي حال؛ فإنّ ما استرعى انتباهـي هنا هو مسؤولية وزارة الأوقاف في حفظ الأماكن الدينية والمسـاجد في الضفة الغربية، رغم أنّ مخالب دولـة إسرائيل الغـاصبـة تخيّم على الأراضي المحتلـة وهي الآن تسعى لتهويد القدس الشريف!!

ب : زيارة جامعة مؤتة

إن " مـؤتـة " مدينـة في محافظـة " كـرَك " الجنوبيـة والمتـاخمة لفلسطين المحتلة. اصطف جنود الإسلام في هذه المدينة أمام الروم بقيادة " جعفر الطيار" و" زيد بن الحارثة " و" عبد الله بن رواحة " ،

وبعد استشهاد هؤلاء الثلاثة، خوّلت القيادة لخالد بن الوليد، الذي استطاع الانسحاب بحيلة خاصة حيث أجّج نيراناً في أطراف المعسكر، الأمر الذي أخاف الروم ومنع من التحاق قوات جديدة بهم، وبهذه الحيلة استطاع الانسحاب ليلاً.

رغم أنّ اسلوبه العسكري يدعو للتحسين والثناء؛ إلاّ أنّ انهزامه من ساحة المعركة عدّ دافعاً لتجرّؤ الأعداء وطأطأة رؤوس المسلمين، ولأجل ذلك استقبلهم المسلمون بغضب وجعلوا يحثَون عليهم التراب ويقولون: "يا فُرّار فررتم" وإثر ذلك، تقاعد الكثير من الشخصيات وأصبحوا جلساء البيت وتواروا عن الأنظار.[1]

إنّ مقتل قادة المسلمين يبعد مئات الأمتار عن مدفنهم الحالي. وقد عُلّمت ساحة المعركة بعلائم خاصة، لكن لم يتّضح لي سبب دفنهم بمنأى عن ساحة المعركة. على أي حال؛ فإنّ لكلّ من القادة قبة ومزاراً، إلاّ أنّ مزار جعفر يحظى بمواصفات خاصة. ويقيم الشيعة المقيمون هناك مجالس عزاء في يوم عاشوراء. وقرب قبر جعفر يوجد مسجد أُعيد بناؤه مؤخّراً بشكل جميل. وهذا يكشف عن أنّ بناء المسجد قرب قبور الأولياء والشهداء من التقاليد القديمة، ولم يعدّه السلف أمراً يتنافى مع أصل التوحيد؛ لكن ما يخطر في ذهني

١. سيرة ابن هشام :٢/ ٣٨٢ـ ٣٨٣؛ سيرة الحلبي:٢ /٧٩.

هـو أنّ قبر جعفر كـان داخـل المسجد؛ أمّـا الآن فهـو في جـانب، والسبب يرجع إلى إعادة بناء المسجد.

سمعت مـن أهل مـؤتـة أن زيـد بـن الحارثـة كـان أوّل آمـر للعسكر؛ أمّا جعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة فكانوا حسب التسلسل معاونين له.

وأعتقد أنّ الشـواهد تخالف هذا القـول، أي أنّ جعفر بن أبي طالـب كان الآمـر الأوّل والآخران كـانا معـاونين له. والشـاهد على ذلك هو شعر حسّان وقصيدة كعب بن مالك في رثاء شهداء مؤتة. وحسّان يذكر في البداية جعفراً ثم زيداً وعبد الله. ثم يستعين بفعل (تتـابعوا) أي أنّهم تتـابعوا في حمل الـرايـة وفي الدخـول إلى سـاحـة المعركة وفي الاستشهاد في النهاية.

يقول حسّان:

فــلا يبعــدنّ اللــه قتلى تتــابَعــوا
بمـؤتــة منهم ذو الجنــاحين جعفـر
وزيــد وعبــد اللـه حين تتــابَعــوا
جميعــاً وأسبــاب المنيــة تخطــر

تكرر في هذيـن البيتين استخدام مفردة (تتابعوا) مرتين، وفي مقام البيان ذكر جعفراً الطيار أوّلاً ثم أشار إلى زيد وعبد الله ولابد أنّ اصطفافهم في الجبهة كان بهذا الشكل الذي ورد في البيتين.

يقول كعب بن مالك في قصيدته:

إذ يهتدون بجعفر ولوامع قدّام أوّلهم فنعم الأوّل [1]

على أيّ حال، إنّ الإعلام المسموم والمستمر للأُمويّين والعبّاسيّين من أجل تحقير آل أبي طالب وآل علي وسعيهم لقلب الحقائق، جعلت من بعض القضايا التاريخية المفتعلة كالقضية الماضية مشهورة في المنطقة رغم أنّها خلاف الواقع وخلاف الشواهد التاريخية.

إنّ مدينة مؤتة تبعد عن عمّان مسافة ١٣٥ كيلومتراً، ونحن بعد أن قطعنا هذه المسافة دخلنا جامعة مؤتة. وقد استقبلنا الدكتور "الدحيات" بمعيّة شخصيات أُخرى في حرم الجامعة؛ ثم توجهنا إلى إدارة الجامعة. حيث بدأ رئيس الجامعة المحترم بتقديم نبذة عن تاريخ الجامعة ، وقال: إنّ جامعة مثل هذه تعدّ فريدة من نوعها. وذلك لأنّها تأسّست في عام١٩٨٢م كجامعة عسكرية وبعد أربع سنوات أُضيف إليها سبع كلّيات في إطار سبعة فروع واختصاصات علمية. وعدد طلابها ثلاثة عشر ألف، والعسكريون منهم ألف فقط.

ثم أضاف: هناك ثمانمائة طالب أجنبي من الدول الإسلامية يدرس في الجامعة وهي الجامعة الحكومية الوحيدة في محافظة "كَرَك".

---

١ . سيرة ابن هشام :٢ / ٣٨.

بعد الإصغاء إلى كلمة مدير الجامعة اغتنمت الفرصة للتذكير بأنّ جامعة محافظة كرك تقرب من مدينة مؤتة، التي فيها مدفن شهداء الإسلام. وهذا الاسم يتداعى معه ذكريات إيثار جنود الإسلام في الصدر الأوّل وتضحياتهم، الذين رزقوا الشهادة بقلب ملؤه الإيمان في بلاد الغربة، حيث جاهدوا الأعداء بعدّة قليلة وبدائية في وقت كان العدو مزوّداً بأسلحة فتاكة . من هنا ينبغي أن تولى الأهمية المناسبة للجانب الأخلاقي والثقافي لطلبة الجامعة، فإنّ بعض الطالبات مثلاً لم يلتزمن بالمظاهر الإسلاميةمن حيث الحجاب.

بعد ذلك توجّهنا برفقة الرئيس المحترم إلى قاعة المؤتمرات ثم إلى منصَّة الخطاب.

بما أنّ هذه الجامعة تقع قرب مقبرة شهداء مؤتة ولكلّ من الشهداء مزار خاص، وجميعها تعدّ مثار اهتمام السيّاح من المسلمين وغيرهم؛ لذلك ارتأيت أن يكون موضوع حديثي هو الاهتمام بالآثار الإسلاميةالتي أثرناها عن الأجداد خلال القرون الماضية، وضرورة حفظ هذه الآثار وذلك لأجل أنّا علمنا بأنّ الوهابية بدأت إعلامها المسموم في هذا البلد، وقد اشتروا بعض الذمم، وبخاصة أنّ "ناصر الدين الألباني" محدّث أهل السنّة المشهور والوهابي المسلك قد غادر سورية قادماً إلى الأردن، وبدأ حملة إعلامية واسعة. وعلماء

الدين وزعماء الأردن لم يكونوا محيطين بمنطق الوهابية، ولذا كانوا غير قادرين على مواجهتهم.

طلب مني بعض الأصدقاء بأن أطرح هذا الموضوع في حديثي في الجامعة لعلّنا نتمكّن من طبع الحديث ونشره بشكل مستقل في الأردن.

المحاضرة في جامعة مؤتة

قدّمني عريف الحفل، واطّلع إثر ذلك الحاضرون الذين هم من أساتذة الجامعة وطلاّبها على مستوى معلوماتي في مجال العقائد والفرق الإسلامية. ثم بدأت بالمحاضرة، ولا يمكن نقلها جميعاً هنا؛ لكن نأتي بموجز منها:

بعد الحمد والثناء لرب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه وعترته الطاهرة، بدأت حديثي بتلاوة آيتين من سورة النور وقلت :

قال الحكيم في محكم كتابه الكريم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم:

﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيها بِالغُدُوِّ وَالآصالِ* رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقامِ الصَّلاةِ وَإِيتاءِ الزَّكاةِ يَخافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصارُ﴾ .[1]

---

١ . النور : ٣٦_٣٧.

تحدّثت الآيتان عن بيوت أذن الله في ترفيعها، وتتّضح الآيتان من خلال شرح المطلبين الآتيين:

١ . ما هو المراد من (بيوت) في الآية الكريمة؟

٢ . كيف يحصل (الترفيع)؟

بالنسبة للمطلب الأوّل فانّا نرى المراد منها عكس ما يراه بعض المفسرين من أنّ المراد ـ منها هو المساجد ـ هو بيوت الأنبياء والصالحين الذين لا تلهيهم التجارة ولا البيع عن ذكر الله وأداء الفرائض الأُخرى، وبيوتهم ملؤها التسبيح والتنزيه لله... ويتضح هذا من خلال الأدلّة التالي ذكرها:

١ . إنّ البيت لا يصدق إلاّ على البناء الذي يتضمن أربعة جدران وسقف؛ ولا يطلق على البناية. بيتاً اذا لم يكن فيها سقف؛ بينما السقف ليس شرطاً في تحقيق عنوان المسجد؛ ويكفي في صدقه الجدران الأربعة.

يقول القرآن عن بيوت المشركين:

﴿وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ... ﴾ .[1]

إنّ البيت لو لم يكن ملازماً للسقف لكان هذا الكلام غير صحيح، بل لكان عليه أن يقول (لبيوتهم سقفاً أو جدراناً من فضة)

---

١ . الزخرف : ٣٣.

بل استخدم التعبير السابق، وذلك يكشف عن التلازم بين البيت والسقف عكس المسجد.

ولأجل ذلك كان المسجد الحرام مسجداً رغم فقدانه للسقف؛ وكانت الكعبة بيت الله وذلك لاحتوائها على السقف.

٢. استخدم (بيت الله الحرام) في القرآن بـالمعنى الذي يقابل (المسجد الحرام)، حيث يقول:

﴿**جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ البَيْتَ الحَرامَ قِياماً لِلنّاسِ ...**﴾.[١]

ويقول في آية أُخرى:

﴿**... وَالمَسْجِدِ الحَرامِ الَّذِي جَعَلْناهُ لِلنّاسِ سَواءً الْعاكِفُ فِيهِ وَالبَادِ ...**﴾.[٢]

إن هذا النوع من التقابل يكشف عن اثنينية البيت والمسجد وعدم اتّحادهما في لغة القرآن.

٣. فسّر الرسول صلى الله عليه وآله البيوت في الآية ببيوت الأنبياء واعتبر بيت فاطمة عليها السلام من تلك البيوت.

عن أنس بن مالك وبريدة قالا: قرأ رسول الله صلى الله عليه وآله هذه الآية: ﴿**في بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرفَعَ**﴾ فقام إليه رجل، فقال: أي بيوت هذه يا رسول الله؟ قال: بيوت الأنبياء... فقام إليه أبو بكر، فقال: يا

١. المائدة: ٩٧.

٢. الحج: ٢٥.

رسول الله هذا البيت (مشيراً إلى بيت علي وفاطمة) منها؟ قال ﷺ: نعم من أفاضلها.

من خلال تفسير الرسول للبيوت ببيوت الأنبياء ثمّ عدّ بيت علي وفاطمة من أفاضل تلك البيوت، يمكن القول: إنّ المراد من البيوت هي بيوت الأنبياء و الأولياء وبيوت ذوي المقامات العالية من البشر الذين ملئت بيوتهم بالتسبيح والتنزيه و إقامة الصلاة وغير ذلك. وهى مصابيح منيرة بالنور الإلهي لذا أذن الله أن ترفع.

بهذا البيان استطعنا رفع الإبهام عن مفهوم "بيوت" وحان الوقت لأن نتناول تفسير كلمة "الترفيع".

إنّ المراد بهذا اللفظ هو أحد المعنيين التاليين:

١ إن الترفيع الظاهري يتحقّق بتعلية البناء وتطويله؛ وقد استخدم القرآن هذه المفردة بهذا المعنى:

﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْراهِيمَ الْقَواعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْماعِيلُ ... ﴾ .[1]

وبما أنّ الحديث عن البيوت الموجودة، فالمراد إذن هو صيانة هذه البيوت وحفظها من الهدم.

٢ الترفيع المعنوي وهو كناية عن الصيانة المعنوية لبيوت مقدسة تحظى باحترام خاص؛ التي لازم وجودها السعي في إبعادها عن أي تلوث ظاهري وباطني.

١. البقرة : ١٢٧ .

في النتيجة، إنّ الآية دعتنا لحفظ وصيانة بيوت الأنبياء، أي أنَّ ترفيعها ظاهرياً وباطنياً من موارد المشيئة الإلهية التشريعية، سواء كانت هذه البيوت مدفناً لأُولئك (مثل بيت النبي ﷺ) أو لم تكن؛ على أي حال فإنّ حفظ هذه البيوت وحراستها تحظى بمحبوبية ومشروعية خاصة.

وإذا كان حفظ البيوت وحراستها مدلولاً لهذه الآيات بهذه الصراحة، فكيف يمكن عدّ الحفظ والحراسة شركاً أو بدعة؟! إنّ الذين ينعتون حفظ البيوت هذه وصيانتها بدعة وشركاً، لم يدركوا مغزى الشرك حقاً. كيف يمكن اعتبار تكريم آثار الرسل الذين ضحّوا بكل ما لديهم لأجل التوحيد، شركاً رغم وجود الإذن القرآني في الترفيع ﴿**أذن الله أن ترفع**﴾ وهل هذا بدعة أو دخيل في الدين؟!

بناء المساجد قرب قبور الشهداء

إنّ بناء المساجد عند قبور الأنبياء والشهداء من الأُمور الرائجة والملموسة في الدول الإسلامية. وقد شاهدت في رحلتي القصيرة للأردن أنه قد بني مساجد على قبور الأنبياء جميعها. أي أنّ في جنب هذه القبور مساجد تتردّد عليها الناس المجاورون للقبور وتصلّي فيها في الأوقات المختلفة. ورغم أنّ هناك جدراناً تفصل بين المساجد والقبور، من الواضح أنّه قد قصد من بناء المسجد في

هذا المحل، التبرّك بهذه البقعة الخاصة بهؤلاء العظماء، وإلاّ فلا نجد مبرِّراً لبناء المساجد في جميع مشاهد ومراقد هؤلاء الأولياء الربانيّين.

من هنا يمكن اعتبار قضية بناء المساجد جنب العظماء الربانيّين قضية إجماعية، والإجماع أحد المدارك الشرعية لاستنباط الحكم في الفقه الإسلامي، وإذا لم نعتد باتفاق كهذا فإنّ ذلك يعني أنّه لا قيمة للإجماع أبداً.

يحكي القرآن أنّ الناس بعد أن اكتشفوا قبور أصحاب الكهف انقسموا إلى مجموعتين؛ مجموعة طالبت ببناء أثر تذكاري على قبورهم؛ والمجموعة الأُخرى دعت إلى بناء مسجد على قبورهم؛ والقرآن يحكي كلتا النظريتين اللّتين صدرتا من الفريقين تمجيداً لعملهما.

﴿... فَقالُوا ٱبْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الّذينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ .(١)

يقول المفسرون في الآية: إنّ الفريق الأوّل كان مجموعة المشركين المغلوب على أمرهم آنذاك؛ أمّا الفريق الثاني مجموعة المؤمنين بالمسيحية أي الدين الذي كان رسمياً آنذاك عكس عصر هجرة أصحاب الكهف حيث كان حافلاً بالشرك، وزمام الأُمور كان بيد المشركين.

١ . الكهف : ٢١.

إنّ هذا العمل لو كان بدعة أو سبباً ودافعاً لعبادة أصحاب الكهف لما حكاه القرآن كتمجيد وتثمين من قبل الناس لهؤلاء الأولياء.

أيّها السادة أساتذة وطلاباً أُخاطبكم وأقول لكم: إنّ بلدكم هذا هو بلد الأنبياء؛ حيث تقع مراقد بعض أنبياء بني إسرائيل على أرض بلدكم. وقد بنى أجدادكم وأسلافكم المساجد في جنب هذه القبور. فكونوا أنتم أتباعاً لهؤلاء العظماء، كي تستمر سيرة السلفَ الصالح المتمثّل في تكريم وتمجيد هؤلاء العظماء الأمر الذي أثرناه عن عصر الصحابة.

نحن نثمّن عمل وزارة الأوقاف في إعادة بناء قبور شهداء مؤتة ونشكرها على ذلك. لأنّا نعدّ إسلامنا رهنَ تضحيات وإيثار شهداء طريق الإسلام .

في النهاية أذكّر بأنّ المجال مفسوح لمن كان له استفسار أو نقد، وليطرح من أراد سؤاله أو نقده بشكل مباشر وحر.

وطرح حينئذ شيخ كبير درس في العربية السعودية السؤال التالي:

أمرَ علي عليه السلام بتسوية القبور

إذا كان البناء على القبر جائزاً، فكيف تفسرون أمر الإمام علي أحد أصحابه وهو "أبو الهياج" بما يلي:

"ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول صلى الله عليه وآله وسلم أن لا تدع تمثالاً إلاّ طمسته.

ولا قبراً مَشْرفاً إلاّ سوّيته بالأرض".[1]

لقد أمر الإمام هنا بتسوية القبور، فكيف مع ذلك يمكن القول بصحة وجواز البناء عليها؟!

الجواب

أشكر الأخ السائل الذي مزّق حاجز الصمت المخيِّم على المجلس، وأشار إلى حديث هو ذريعة المخالفين لحفظ الآثار الإسلامية، إلاّ أنّه أخطأ في نقل الحديث، فإن الحديث يخلو من مفردة (بالأرض)، وإذا راجعتم صحيح مسلم لوجدتم ما قلناه صحيحاً. وبعد التذكير بما سبق نأتي إلى توضيح الجواب.

متى ما استخدمت مفردة التسوية من دون حرف جر، فالمراد منها المعنى الذي يقابل الإعوجاج، كما جاء ذلك في الآية التالية:

١ . صحيح مسلم: ٣ / ١٦ من كتاب الجنائز.

﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوّى﴾(١) فإنّ المقصود من التسوية في هذه الآية وأمثالها هو ذلك المعنى من التسوية الذي يقابل الإعوجاج، أو كمال الخلقة، كما قال: ﴿... ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً﴾ (٢) وكما قال أيضاً: ﴿فَإِذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ ساجِدين﴾ (٣) إن التسوية في جميع هذه الموارد يراد منها المعنى الذي يقابل الإعوجاج ، وهو كناية عن كمال الخلقة ونزاهتها عن كلّ نقص وعيب.

أمّا إذا جاءت هذه المفردة مقترنة بحرف جر، فإنّها تشير إلى معنى المقارنة، ويراد منها مساواة شيء بشيء، سواء كان ذلك التساوي ظاهرياً أم باطنياً. على سبيل المثال إذا كان هناك خطّان أحدهما طويل والآخر قصير، فتقصير الطويل يؤدي إلى التسوية بينهما وتستخدم هنا العبارة التالية: "سوّى هذا بهذا" . واذا كانت هناك نقطتان من الأرض إحداهما أعلى من الأُخرى، لو أضفنا التراب على المنخفضة أو أخذنا من المرتفعة ، حصلت التسوية بينهما ويقال حينئذ: سوّى هذه القطعة بهذه.

يعكس القرآن عقيدة المشركين تجاه أنفسهم في يوم القيامة كالتالي: ﴿تَاللهِ إِنْ كُنّا لَفِي ضَلالٍ مُبينٍ* إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ

١ . الأعلى: ٢ .

٢ . الكهف: ٣٧.

٤ . الحجر: ٢٩.

الْعالَمينَ﴾ . [١]

ثم يحكي القرآن في آية أُخرى عن ذكر الكافرين وخوفهم من عذاب الآخرة، بحيث يتمنّون لو تسوّى بهم الأرض :

﴿يَومَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلاَ يَكْتُمُونَ اللهَ حَديثاً﴾ . [٢]

استخدمت مادة (سوى) في الآيتين مقترنة بحرف جر، فهي إذن في كلا الموردين بمعنى التسوية بين الشيئين قياساً لأحدهما بالآخر، حيث سوّى المشركون في الأُولى بين الله والأصنام.

وفي الثانية تمنّوا المساواة بين الأجساد الميتة والأرض .

وعلى ما تقدم فإن التسوية تستخدم بمعنيين:

١ ما يقابل الإعوجاج إذا لم تقترن بحرف جر.

٢ ما يستفاد منها معنى المقارنة والتعادل، وذلك إذا ما اقترنت بحرف الجر.

ولنرجع إلى الحديث حتى نرى الآن ما المقصود من التسوية في الحديث الموجود في صحيح مسلم؟

يبدو أنّ المراد من التسوية في الحديث هو المعنى الأوّل وذلك بدليل تجرّد مادة التسوية من حرف الجر، وكذلك بقرينة مفردة

١ . الشعراء: ٩٧ـ٩٨ .

٢ . النساء: ٤٢.

" مشرفاً " التي تفيد العلو والارتفاع الذي يشبه ارتفاع سنام البعير.

أي أنّ الرسول ﷺ و الإمام علياً عليه السلام أمر أبو الهياج أن يسوّي القبور التي بنيت على غرار سنام البعير. يبدو أن بناء القبر مسنماً كان أحد شعارات المشركين. وبهذا التفسير يبدو الحديث لا علاقة له بتحريم البناء على القبور. وذلك للأمور التالية:

أوّلاً: إذا كان المراد تسوية القبر بالأرض لكان على الإمام القول: " إلاّ سوّيته بالأرض " .

ثانياً: إنّ مساواة القبر مع الأرض يتنافي مع فتاوى فقهاء المسلمين جميعهم حيث اعتبروا تعلية القبر إلى مستوى أربعة أصابع مستحبة.(١)

ثالثاً: على فرض صحة الحديث فإنّ الرسول ﷺ أمر بتسوية القبر مع الأرض ولم يأمر بتهديم ما كان عليه من بناء وسقف.

إنّ هذا الجواب كان بدرجه من القوة بحيث أسكت السائل بالكلّية.

البناء على القبر عبادة لصاحبه

تحدّث شاب يبدو أنّه كان طالباً في الجامعة عن البناء على القبر و اعتبره بمثابة العبادة لصاحب القبر. وذلك يتعارض مع

---

١ . الفقه على المذاهب الاربعة: ١ / ٣٥٣، باب حكم دفن الميت.

التوحيد في العبادة (أو التوحيد في الإلوهية حسب تعبيرهم).

الجواب

إنّ الحكم بـأنّ البناء على القبر عبـادة لصـاحب القبر أو غير ذلك يتـوقف على التحديـد المنطقي للفظ (العبادة)، بحيث يكون تحديداً جامعاً لـلأفراد ومانعاً للأغيار. ومـا لم يتضح هذا المطلب لا يمكن الحكم بكون هذا العمل شركاً أو تـوحيداً. أيّها السائل العزيز مـا هـو تعريفكـم للعبادة؟ مـا هـي العبادة؟ لماذا يقـال: إنّ البنـاء التذكاري على قبر رسول التوحيد عبادة للرسول؟ ظل السائل صامتاً متحيراً فبـادرته قـائلاً: وبما أنّكـم لم تجيبوا على سـؤالي، فسأقـوم أنـا بالتعريف المنطقي للعبادة.

هناك عدة احتمالات في تحديد العبادة نشير لها جميعاً:

١ . هل العبادة تعني الخشوع والخضوع أمام شخص ثان؟

من المسلم أنّ هـذا خطأ، وذلك لأنّ لازم هـذا التعريـف هو عـدم العثور على مـوحّـد على وجـه الأرض ، وذلك لأنّ كل إنسـان يخضع أمام والده وأُمّه وأُستاذه. يأمرنـا القرآن بانتهاج السلوك التالي أمام الوالدين:

﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَـا جَناحَ الذُّلِّ مِـنَ الرَّحْمَةِ وَقُـلْ رَبِّ ٱرْحَمْهُما كَما رَبَّيانِي صَغِيراً﴾ .[1]

---

١ . الإسراء : ٢٤.

٢ . هل العبادة تعني الخضوع اللامتناهي أمام شخص ثان؟

كـلاّ قطعـاً؛ وذلك لأنّ السجـدة التي تعـدّ أعلى مـرتبـة من مراتب الخضوع حصلت لآدم. فقد أمر الله الملائكة أن يسجدوا له، رغـم ذلــك لم يعتبروا مشركين.[١] كما قـد سجـد يعقـوب وزوجتـه وأولادهما ليوسف ولم يعدّوا مشركين[٢]، فإذا كان السجود لآدم عبادة لما أمر به الله باعتبار قبحه[٣]، ولما سجد نبي مثل يعقوب لابنه. ومن إبطال المعنيين الماضيين يتعيّـن المعنى الثالث الذي نأتي به هنا.

٣. العبادة نوع من الخضـوع أمام شخص يعدّه الخاضع إلهاً، سواء كان ذلك المخضوع له إلهاً واقعياً أو كاذباً مثل الأصنام الخشبية والفلزية أو الأجرام السماوية.

بتعبير آخر: إذا اقترن الخضوع باعتقـاد الخاضع بأنّ المخضوع له هو الله أو مخلوق لكنه مصدر في ذات الوقت للأفعال الإلهية (بأن يكـون بيده مصير العـالم أو قسم منـه أو مصير الإنسان فقـط) فإنّ الخضوع هنا يتخذ صبغة العبادة مهما كان مستواه ولو لم يبلغ منتهاه.

---

١. انظر البقرة: ٣٤.

٢. يوسف: ١٠٠.

٣.﴿قُلْ إِنَّ اللهَ لاَ يَأْمُرُ بِالفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٢٨).

إنّ الشرك من أقسـام الفحشـاء، وذلك لأنّـه ظلم واضـح كما يقول سبحـانـه: ﴿ ...إن الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).

أمّا إذا فقد الخضـوع هذه الصِبغَة فسوف يكون تكـريماً وتمجيداً ولو بلغ منتهاه.

وخلاصة الكلام، هو ما دام أن عمل الخاضع لم يقترن بعقيدة الإلـوهيـة أو الربـوبيـة، ولم يتخللهـا الاعتقـاد بأنّ مصير العـالم أو الإنسان بيد المخضوع له، فإن خضوعه مهما بالغ فيه لا يتخذ صبغة العبادة.

رغم أنّ المشركين العرب لم يكونـوا يعتقدون بأنّ الأصنام هي التي خلقت السماوات والأرض ، إلاّ أنهم كانوا يعتقـدون بربوبيتها وتدبيرها للعالم، وأنّ إدارة العالم مخوّلـة إليها؛ وفي استدلالات القرآن على إنكار ربوبية هذه الأصنام إشارة واضحة إلى عقيدتهم تلك:

﴿قَـالَ أَفَتَعْبُـدُونَ مِـنْ دُونِ اللهِ مَـا لاَ يَنْفَعُكُـمْ شَيْئـاً وَلاَ يَضُرُّكُمْ﴾.[1]

أي أنّ العبادة أهل لمن كان قادراً على إمداد الناس بالنفع أو إضرارهم؛ والأصنام ليست أهلاً لهذين الأمرين.

تشهد بعض الآيـات أنّ مشركي عهد الرسالة كانوا يعتبرون مقاماً مثل الـربوبية لمعبوديهم، رغم أنّهم ما كانـوا يعتقدون بخالقية هذه الأصنام، بل يعتقدون أنّ مصير الإنسان في مجالات خاصة مثل

---

١. الأنبياء : ٦٦.

العز والذُلّ والنصر والهزيمة في الحرب بيـد الأصنام، فينبغي عبادتها وكسب رضاها لأجل بلوغ العزة والنصر، يقول الله في هذا المجال:

﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُون﴾ .(١)

ويقول كذلك:

﴿وَٱتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً﴾ .(٢)

مع الالتفـات إلى معنـى العبادة والتحـديـد المنطقي لمفـردتي التـوحيـد والشرك، يمكننا الحكـم بـوضوح على أنّ البنـاء على قبـور الصالحين و الأولياء ليس عبادة لأصحـابها. وذلك لأنّه لا أحد من العباد الصـالحين يعتبر المقبور إلهاً أو ربّـاً بحيث يعدّ عملهـم عبادة لصـاحـب القبر، بل إنّ الجميـع يعـدّون الأوليـاء والصـالحين مـن أصحاب القبـور عباداً موحّـدين بذلـوا مهجهم في طريق التـوحيد وضحَّوا بأموالهم وأنفسهم، وغالباً ما تجرّعوا كأس الشهادة.

كان لهذا البيان وقع في قلوب المستمعين والحاضرين في المؤتمر وأثّر فيهـم؛ وكان الاستنـاد إلى آيات القـرآن ملفتاً لهم أكثـر من أي شي ءآخر.

---

١. يس : ٧٤.

٢. مريم : ٨١.

الأصنام عبادٌ مقرّبون لا أرباب

سأل سائل آخر: سماحتكم أشرتم إلى أنّ العبادة هي الخضوع المتزامن مع التأليه، مع أنّ العرب في عصر الرسالة، كانوا يعتبرون الأصنام عباداً يقرّبون لا أرباباً ما، وكان الهدف من عبادتها هو التقرّب إلى الله عن هذا الطريق لا أنّها هي بنفسها آلهة، أو أرباب كما يشير القرآن إلى ذلك في الآيةالتالية:

﴿أَلَا للهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ .[١]

إنّ هذه الآية تصرّح بشيء من عبادة الأصنام عكس ما هو معروف عنها، حيث تجعل دافع المشركين من العبادة التقرّب إلى الله، وما كانوا يعتقدون بأنّها تنفع أو تضر أو أنّ الشدة والرخاء بيدها. وبكلمة موجزة لم يعتبروها أرباباً مالكةً لشيء من مصير الإنسان العابد . وعلى هذا فالتعريف يختل ولا يكون مانعاً. وذلك لأنّه صدق على عمل المشركين تجاه الأصنام عبادة رغم أنّهم ما كانوا يعتقدون بإلوهيتها أو ربوبيتها.

---

١ . الزمر : ٣ .

الجواب

أوّلاً: لا وجود للتناقض والتضاد في آيات القرآن؛ والآيات السابقة أوضحت بشكل لا يدعو إلى الشك أنّ مشركي العرب كانوا يعتقدون أنّ العزة والذلّة والنصر والهزيمة كلّها بيد هذه الأصنام ورهن إرادتها؛ وقد استخدم القرآن نفسه مفردة " الأرباب " للإشارة إليها:

﴿... ءَأَرْبابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْواحِدُ الْقَهّارُ﴾ .(١)

﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ اللهِ ...﴾ .(٢)

ثانياً: إنّ ذيل الآية يشهد بأنّ الفريق المذكور كان كاذباً في ادّعائه، وذلك لأنهّم بمجرد مواجهتهم لمنطق القرآن القوي والمحكم في نفي الإلوهية والربوبية، مالوا إلى التحريف، وقالوا: **﴿ما نعبدهم إلاّ ليقرّبونا﴾** أي أنّا لسنا بمعتقدين بأنّ الخير والشر بيدها.

يقول القرآن في تكذيب كلامهم:

﴿إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كاذِبٌ كَفّار﴾ .

أي أنّهم كانوا كاذبين في ادّعائهم بل يعتقدون بإلوهية هذه الأصنام وربوبيتها، لذا كانوا يعبدونها.

---

١ . يوسف : ٣٩.

٢ . التوبة : ٣١.

حفظ الآثار ، من معالم الأصالة

إنّ الحديث حتى الآن كان عن حفظ الآثار الإسلامية وأنّ الآيات دعت إلى تكريم الأنبياء و الأولياء والصالحين، ومجّدت بيوتهم، واستحسنت بناء المساجد على مزاراتهم.

أمّا الحديث الآن فيتناول زاوية أُخرى من حفظ الآثار أي الحديث عن الجانب الاجتماعي والتربوي للقضية. إنّ الحادث العظيم يفقد عظمته بمرور الزمان إلى أن يصبح خبراً واحداً وقد يُنكر إذا كان فاقداً للشواهد الأُخرى إلى أن يُصبح في عداد الأساطير من قبيل ليلى ومجنونها.

من المسلّمات عندنا (نحن المسلمون) هو بعثة رسول باسم المسيح عليه السلام ، ونعد هذه القضية من قطعيات تاريخ الأنبياء، وذلك لأنّ القرآن أقرّ بعثته مع كتابه "الإنجيل" . إلا أنّ الغرب وبخاصة طبقة الشباب والمثقفين منهم أخذ يشك في هذه البعثة وهذا الرسول وذلك لأنّ خبر بعثته أخذوه عن غير القرآن.

من علّل هذه الظاهرة في العالم الغربي، هو أنّه لا يوجد أثر ملموس عن المسيح، فلا مزار له ولا علامة ولا كتاب يمكن نسبته إلى عالم الغيب؛ وذلك لأنّ جميع ما يوجد من أناجيل هي عبارة عن حكاية للسيرة الذاتية للسيد المسيح لا أنّها كتب سماوية؛ كما أنّه لم

يتعيّن قبر لأُمّه وحوارييه. ومن هنا كان تاريخ السيد المسيح في هالة من الإبهام، وقد اتّخذ صبغة أُسطورية من وجهة نظر الشاب الغربي.

على المسلمين أن يعتبروا ممّا وقع فيه المسيحيون، وعليهم أن يحافظوا على تراثهم وما ورثوه من الأنبياء وأولادهم بدقة، ويسعوا في صيانة تلك الاثار، للحؤول دون الابتلاء بالمصير الذي ابتلى به المسيحيون.

إلّا أنّا نحن المسلمين ــ إثر حفظنا للآثار الإسلامية ـ نقول ـ برفعة رأس ومن دون شك ـ : إنّ الرسول بعث في مكة قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، ودعا العالم إلى دينه، وقد نجح في هذا المجال نجاحاً باهراً.

هنا مولده (إشارة إلى مولده قرب مسجد الحرام الذي هدّم بفأس الوهابيّين). هنا معبده قبل البعثة (جبل حراء) وهذه البقعة (بدر أو أحد) ساحة معركته مع المشركين. وهنا مدفن زوجاته وأقاربه. إنّ هذه الآثار الملموسة وعشرات غيرها شهود لواقعية الدعوة الإلهية، وحفظ هذه الآثار معلم من معالم الأصالة، وما علينا إلّا السعي في حفظها.

عندما بلغ حديثنا هنا أحسست باقتراب وقت الصلاة فرأيت ضرورة ختم الحديث؛ وأتممته عملياً بالشكر من رئيس الجامعة المحترم وعريف البرنامج، وفي النهاية قرأت الحديث المأثور عن

صاحب الزمان ـ عجّل الله تعالى فرجه الشريف ـ:

" اللهم ارزقنا توفيق الطاعة وبعد المعصية وصدق النية وعرفان الحرمة وأكرمنا بالهدى والاستقامة وسدد ألسنتنا بالصواب والحكمة واملأ قلوبنا بالعلم والمعرفة... " والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

زيارة تفقدية لمكتبة الجامعة

تركت قاعة الاجتماعات لأجل إقامة الصلاة، وتفقدنا في طريقنا إلى المسجد مكتبة جامعة مؤتة التي تحتوي على ٢٨٠,٠٠٠ كتاب بالعربية واللاتينية. لم تكن قاعة المكتبة خالية بالكلية بل كان هناك عدد من الطلاب مشغولين بالمطالعة وكتابة رسالات التخرّج. والنشاط الملاحظ في المكتبة يكشف عن سعيهم الدرسي. ثم توجهنا إلى قسم الحاسوب الذي غذّي بأسماء وعناوين كتب المكتبة. وقد أردت هنا أن أطّلع على ما احتوته المكتبة من كتب شيعية، إلاّ أنّي كنت أواجه جواباً سلبياً عندما أطلب كتاباً شيعياً، إلاّ كتاب " شرائع الإسلام " للمحقّق الحلّي. وهذا أمر يبعث على الأسف من حيث إنّ المكتبة تحتوي على آلاف المصادر العربية واللاتينية إلاّ أنّها تفقد المصادر الشيعية في الموضوعات المختلفة.

أذكر أن الكتب المطبوعة بالطبعة الحجرية غير مناسبة،

وليست أهلاً لاستفادة الشباب منها، وما يفيدهم حالياً هو الكتب التي طبعت بطبعات حديثة.

نأمل من حوزات الشيعة العلمية ان تقوم بواجبها من إرسال الكتب إلى مراكز العالم المهمة، لكى يتم بذلك تعريف مذهب الشيعة الغني إلى العالم.

تركت المكتبة متأسفاً كثيراً، لأجل إقامة الصلاة في المسجد. وقد كان المسجد نظيفاً جداً وأهلاً لمركز يشكّل طلاب الجامعة الأكثرية فيه. وبعد إقامة الصلاة ذهبنا إلى صالة خاصة لأجل تناول وجبة الغداء. وقد كان هناك جمع من الحضّار؛ كما كان الشخص الذي طرح أوّل نقد جالساً معي على طاولة الطعام ذاتها. وقد طرح أحاديث مختلفة في الأثناء نعرض عن ذكرها. وبعد إتمام الطعام، شكرت الحاضرين وودعتهم خارجاً من الجامعة قاصداً زيارة قبور شهداء مؤتة.

عندما دخلت صحن المزار، شاهدت مجموعة منهمكة في نصب الخيام هنا؛ علمت بعدئذ أنّهم عراقيون مقيمون في الأردن يأتون من كل صوب من الأردن في التاسع والعاشر من محرم لإقامة العزاء على سيد الشهداء ورغبوا بمشاركتي في العزاء و إلقاء محاضرة حول نهضة الحسين عليه السلام، والحقيقة إنّي كنت راغباً في إلقاء محاضرة عن النهضة الحسينية هناك؛ إلاّ أنّ ضيق الوقت ورعاية لبعض

المصالح حالت دون تلبية هذه الرغبة.

لا يمكن إنكار الحق والتغافل عنه؛ فإنّي وجدت مزار شهداء مؤتة يعاد بناؤه بشكل جيد، وكان هناك حديث يتردّد على أنّ حكومة إيران تكفّلت بزخرفة قبة جعفر بن أبي طالب بالكاشي المصقول. نأمل أن يأتي اليوم الذي يعاد فيه بناء جميع الآثار المندثرة التي هي معالم للأصالة.

زرنا قبور الشهداء الثلاثة ، وسلّمنا عليهم؛ وتركنا الهواء الربيعي لإقليم كرك قاصدين عمّان، سالكين غير الطريق الذي سلكناه عند المجيء إلى هذا الإقليم. فإنّا قد جئنا على الطريق الذي يمر ببحر الميت وبلد لوط. وقد شاهدنا في الطريق صخرة عظيمة فوق جبل تشبه تمثال الإنسان، وقد قيل: إنّها الهيكل المتحجّر لامرأة لوط التي ذكرها القرآن بأنّها كانت عجوزاً في الغابرين:

﴿فَنَجَّيْناهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعينَ* إِلاَّ عَجُوزاً فِي الغابِرين﴾ .[1]

في الضفة الأُخرى للبحر الميت تقع دولة فلسطين المحتلّة، ومحافظة كرك متاخمة لفلسطين المحتلة. وفي تلك الأيام قرأنا في الصحف أنّ آلافاً من الهكتارات في محافظة مفرق (تقع في شمال

١. الشعراء: ١٧٠ـ١٧١.

الأردن)قد بيعت إلى تجار إسرائيليّين، وقد منحت الوثائق الرسمية لمشتري هذه الأراضي بأسمائهم. وهذا في الحقيقة تكرار لتجربة شراءالأراضي الفلسطينية عام ١٩٤٨م أعاذنا الله وإياكم من دسائس الكفّار.

إنّ البحر الميت كبحيرة أُرومية في إيران، حيث لا يعيش موجود حي فيها، إلاّ أنّ الاغتسال فيه يعدّ مفيداً لكثير من الأمراض الجلدية وغيرها. وقد أُعدّت لأجل ذلك سواحل هذا البحر. وأتربة هذه المنطقة تعتبر سماداً، وتصديرها يشكل أحد موارد الأردن؛ كما أنّ إيران من جملة الدول التي تستورد هذا النوع من الأسمدة من الأردن.

الفصل الثالث

زيارة جامعة اليرموك

إنّ يوم الثلاثاء (١٥/ ٢/ ١٣٧٧)صادف رابع يوم من دخولي للمملكة الأردنية الهاشمية. وقد ذكرنا سابقاً أنّ هذا البلد له جامعات ومقاعد دراسية فائضة عن الحاجة الداخلية. وجامعة اليرموك هي إحدى تلك الجامعات. وقد التقى مدير هذه الجامعة مع السفير المحترم للجمهورية الإسلامية قبل وصولي للأردن، وكان قد طلب منه أن يكون لي زيارة تفقدية للجامعة، ومحاضرة عن (الوحدة الإسلامية).

تركت عمّان برفقة السادة " محمد علي السبحاني " السفير المحترم و" حميد مكارم " المستشار الثقافي للسفارة، قاصدين اليرموك. وكان ذلك في الساعة التاسعة صباحاً وبعد قطع مسافة وصلنا باب الجامعة.

في أثناء الطريق شاهد سائق سيارتنا الرسمي (وهو أردني) سائقاً آخر يرمي بقشر البرتقال في البراري، فقبّح سائقنا عمله هذا

بالبوق والإشارة باليد. حينئذ أدركت أنّ التزام الناس بالنظافة هناك هو سبب نظافة مدنهم وهو عكس ما نجده في بلادنا حيث نرى غالبية الناس قليلي المبالاة والاهتمام تجاه نظافة الشوارع!

على أي حال، دخلت السيارة حرم الجامعة وتوقفت عند باب بناية مدير الجامعة. واستقبلنا حينئذ مدير الجامعة السيد فائز الخصاونة (وهو دكتور في الفيزياء) مع عدد من معاونيه، وتوجهنا مع البعض إلى غرفة المدير الخاصة.

دار الحديث عن الجامعة، فطلبت منه الإيضاح، فقال:

" تأسست هذه الجامعة عام ١٩٦٦م وهي تضم حالياً ١٥ألف طالب و٧٠٠ أُستاذاً وقد تقدّمت إلى مستوى الدكتوراه في بعض التخصصات " .

كما قال: لم يمض الكثير من فترة انتصابي في الجامعة كمدير لها؛ وقد جئت مرة واحدة إلى إيران لتفقد معمل تبريز لصناعة السيارات.

وقد عرفت من خلال الفترة الوجيزة التي كنت أتحدّث فيها معه أنّ في الجامعة فرع للإلهيات، ويدرّس فيها الفقه على المذاهب الأربعة، لكن لا أثر للفقه الجعفري هناك، لذلك اقترحت عليه تأسيس مقعد خاص بالفقه الجعفري، وأن يدرّس الفقه الإسلامي بشكل فقه مقارن. لأنّ تلاقي الأفكار يمكن أن يوسع في أُفق

الموضوع ويوضحه أكثر.

قلت لـه: نحن نـدرّس في الجامعـة الإسلاميـة في قم الفقـه المقارن ، فنطـرح تاريخ المسألـة وأقوال الفقهاء وآراءهم فيهـا، وقد نذكر أدلّتهم أحياناً، ثم نبحث المسألـة حسب طريقنا أي بالرجوع إلى الكتاب والسنّة وروايات أهل البيت عليهم السلام .

رحب باقتراحي وقال: إنّ هذا لا يمكن تنفيذه إلاّ من خلال مساعدتكم وتعاونكم معنا، وذلك يتم عبر إرسال الأساتذة و إعداد المصادر.

ينبغي الالتفـات إلى أنّ تأسيس الفقـه الجعفري رهـن تحقّق أربعة أشياء، ومن خلال ذلك يمكن بلوغ أمل الشيعة القديم:

١. الأُستاذ الملم بفقه الشيعة.

٢. الإلمام باللغة العربية.

٣. الاطّلاع على المباني الفقهية لأهل السنّة.

٤. له شهادة معتبرة يمكن معادلتها مع الشهادات الجامعية في العالم.

إلاّ أنّ اجتماع هذه الشروط في شخص واحـد وفي محيطنا هذا نادراً مـا يحصل، ويتمانع عن القيام بهذا العمل الـذين تجتمع فيهم هذه الشروط؛ وبهذا فقد حبس الفقه الشيعي نفسه بنفسه، وقلّما نفذ في المجامـع العلمية والعـالمية! و إذا مـا تحقّق هذا الأمـل يومـاً ما،

فنقطة البداية يجب أن تكون مسائل الأحوال الشخصية، أي يبتّ بتدريس مسائل النكاح والطلاق والإقرار والوصية والميراث أوّلاً. وذلك لأنّ الحاجة إلى هذه المسائل في الدول العربية أكثر من الحاجة إلى المسائل الأُخرى. وتدريس الفقه المقارن يزيل الستار عن عظمة فقه الشيعة. مبدئياً؛ إنّ المشتركات بين الفريقين في هذه الأبواب كثيرة جداً، وفقه الشيعة يتجلّى بين فقه المذاهب الأُخرى بشكل خاص. وذلك لأنّ حقوق المرأة محفوظة بالكامل في هذا المذهب، بينما فتاوى أهل السنّة في مجال إرث المرأة تنتهي بنتيجة الحرمان لها غالباً.

بالطبع، إنّ هذا البحث يتطلب مباحث ودراسات واسعة نترك الحديث عنها إلى فرصة أُخرى.

ثم توجهنا برفقة الدكتور (فائز الخصاونة) إلى قاعة المؤتمرات، وبعد أن قدّمني عريف البرنامج طلب منى إلقاء محاضرة في مجال الوحدة الإسلامية.

المحاضرة في جامعة اليرموك

بعد الحمد والثناء لله والصلاة والسلام على محمد المصطفى وأهل بيته الأطهار وصحبه المنتجبين وتلاوة آيٍ من القرآن، بدأت المحاضرة بالنحو التالي:

السلام على الإخوة والأخوات جميعاً ورحمة الله وبركاته.

موضوع الحديث هو التقريب بين المسلمين والذي يعبّر عنه في بعض الأحيان بـ (الوحدة الإسلامية). والذي اعتبره البعض من المحالات، والبعض الآخر عدّه من الفرائض، فانظر إلى الاختلاف من أين إلى أين؛ وإذا ما تناولنا محور الحديث بالدراسة لرأينا هل أن ذلك من الممتنعات أم الواجبات؟

التقريب ليس تذويباً

قد يظن أنّ هدف الدعاة إلى التقريب هو تبديل المذهبين إلى مذهب واحد، أو تذويب المذهبين في مذهب كما يصطلح ذلك بأن يتخلّى أهل السنّة مثلاً عن معتقداتهم ويختاروا التشيّع بعد ذلك. أو أن ترفع الشيعة يدها عن مذهبها لتصبح سنّية. نحن

نطلق (التذويب) على هذه الفكرة. ويراد منه إذابة طائفة في أُخرى كما يذوب السكر في الماء.[١]

إنّا نطلق "الوحدة" على هذا النوع من الدعوة. وهي أن تزول جميع مميزات المذاهب لكي تظلَّ الأُمّة الإسلامية في مجال العقائد والفقه تحت راية واحدة ومذهب عقائدي وفقهي فريد.

إنّ الدعوة إلى التقريب بهذا المعنى يعدّ مستحيلاً، وبخاصة في الظروف التي نعيشها نحن حالياً. وفي الحقيقة لا يمكن قلع جذور خلافات غرست بذرتها قبل أربعة عشر قرناً خلال يوم أو يومين أو شهر أو سنة، بعد ما أصبحت البذرة شجرة كبيرة.

---

١. رحم الله العلاّمة المجاهد ميرزا محمد تقي القمي وطابت نفسه الزكية، أذكر أنّ المرحوم بعد ما أسّس دار التقريب بين المذاهب عام ١٣٢٧ من الهجرة، سافر إلى إيران والتقى المرحوم آية الله العظمى البروجردي، وقد كان السيد البروجردي يؤيده في قضية التقريب. وفي يوم أعلن عن كلمة له يريد إلقاءها في بهو المدرسة الفيضية في قم.

لم يتجاوز عمري آنذاك العشرين، فانتهزت الفرصة وحضرت للإصغاء إلى كلمته، وقد أشار إلى المطلب الذي ذكرناه آنفاً وقال:

هدفنا من التقريب ليس التذويب فهو مستحيل، عكس التقريب فهو ممكن بالكلية.

ثم ذكّر بخدمات التقريب وقال: كان البناء أن يعاد طبع كتاب (الصراع بين الإسلام والوثنية) لعبد الله القصيمي النجدي في مصر؛ إلا أنّ دار التقريب حالت دون طبعه ونشره من جديد، وذلك لانّه يطعن بالشيعة ويبث الفرقة.

إن سبب هذه الاستحالة أمران:

الأوّل: إنّ العالم السنّي غير مطّلع على عقائد الشيعة بشكل كامل. إنّ هذه المعضلة لم تختص بعوام الناس، بل أنّ أكثر علمائهم ومثقّفيهم لا يحمل المعلومات الكافية عن فقه الشيعة ومعتقداتهم. رغم أن بعض مراكز أهل السنّة بلغها نسيم عن حقيقة الشيعة بعد الثورة الإسلامية في إيران، وعلى هذا فالوحدة مستحيلة مع فقدان العلم والمعرفة.

الثاني: هناك علماء كبار من كلا الفريقين غير مستعدين للمساس بمذهبهم مهما كان نوع المساس، وذلك لأنّهم حاكوا من عقائدهم التقليدية وفقههم التقليدي ثوباً حاجباً بدرجة من القداسة بحيث يمتنع عن الخلع بالكلية؛ ويشاهد ذلك من خلال الاحتكاك بهم من قريب.

كيف يمكن إقرار الوحدة، رغم أنّ أكثر بقاع العالم تفقد المعرفة بألف باء الشيعة؟! و كيف يمكن التوحيد مع وجود شخصيات ترفض المساس بمذهبها ولو كان مساساً غير مرئي؟! كيف يمكن إدغام فرقة في أُخرى مع وجود هذه العقبات؟!

نعم، إنّ هذا الإدغام مستحيل، لكن التقريب بين المذاهب ممكن بالكامل، ويحصل ذلك بعدّ المشتركات والتأكيد عليها ورفع سوء التفاهم والظن المشهود وجوده بين الطوائف.

إنّ نادر شاه هـو أوّل من أثار قضية التقريـب في أواخر القرن الثـاني عشر، وذلك بسبـب وجود بعض الجنـود الأفـاغنة السنّـة في جيشه، إلاّ أنّ سوء تدبيره عطل ملف هذه القضية من دون نتيجة. وقد فتح الملف مرّة أُخرى في عهـد المرحوم السيد جمال الدين الأسد آبادي(١٢٥٤ ــ ١٣١٦هــ) وروّجـت الفكـرة آنــذاك بـواسطـة شخصيـات من السنّة والشيعـة حتى أثمـرت الجهود وتجسـدت في تأسيس (دار التقريب بين المذاهـب الإسلامية) في مصر. وقد كانت تعتمد هـذه الأُطروحـة أو النظريـة اسلوب تعـريف زعماء المذاهب أحدهم بالآخر، وتبيين مشتركـاتهم، ودعوة رؤساء الطوائف والفرق للحضور في المؤتمرات والندوات، وذلك لأجل إيجاد معنوية التفاهم والتقـارب بينهـم، وحفظهـم مـن التشتّت والتفـرّق في القضـايـا السياسية والاقتصادية والحيلولـة دون نشر كتب تبث الفرقة، ورعاية الأخلاق والأمانة في الأداء وطرح القضايا المختلف فيها، وأن يكونوا واقعيين.

إنّ فكـرة كهــذه غير مستحيلــة، بـل إنّها مـن الفــرائض والواجبـات بلحاظ ما يحيط العالم الإسـلامي من مخاطر، وما يعـانيه هذا العالم من إسرائيل جرّاء احتلالها لفلسطين ونـواياها التوسعية ، الأمر الذي لا يخفى على أحد.

إنّ التقريـب لا يعني عدم طـرح القضايا المختلـف فيها، ولا

ينبغي الحديث بغير المشتركات، إنّ ذلك غير مطلوب ولا هو لصالح الإسلام. إنّ حياة العلم رهن النقاش والبحث. إلاّ أنّ الإسلام يطرح "الجدال بالتي هي أحسن" لا غير.

ألّف عبد الله القصيمي النجدي كتاباً في مجلدين باسم "الصراع بين الإسلام والوثنية"، ردّ به على كتاب "كشف الارتياب" للمرحوم آية الله السيد محسن الأمين العاملي. وقد نسب في ذلك الكتاب مجموعة من الأكاذيب والافتراءات إلى الشيعة.

إنّ نفس عنوان الكتاب يعدّ خيانة عظمى للإسلام والمسلمين؛ وذلك لأنّه من خلال ذلك عدّ كثيراً من المسلمين وثنيّين. كما أنّه يذكر في كتابه أن الاختلاف بين الشيعة والسنّة هو في الحقيقة اختلاف بين الإسلام والوثنية.

ينبغي منع نشر كتب كهذه التي ملؤها السب والشتم والطعن الناشئ عن عُقَدٍ نفسية يعانيها المؤلّف، كما ينبغي إيصاء الحكومات للحيلولة دون منح رخصة نشر لهذه الكتب.

إنّ الشيعة اليوم يشكّلون أهم طائفة إسلامية تواجه إسرائيل في جنوب لبنان، كما تعدّ جبهتهم الجبهة الأساسية لحرب المواجهة مع الصهاينة.

إنّ حديثنا مع الجماعة كان يحظى بدرجة كبيرة من التأثير وبخاصة انّه صدر متزامناً مع تذمّر الشعب الأردني من الصلح مع

إسرائيل والصحف دائماً تنقل هذا الانطباع، رغم أنّ تبريرات قد تقرأ في الصحف بين الحين والآخر.

مشكلة الخلافة والإمامة

كلّما كان الحديث عن التقريب، انتقلت الأذهان إلى قضية تسمّى (الإمامة) أو الخلافة.

إنّ الإمامة من وجهة نظر أهل السنّة مقام انتخابي، بينما هو مقام تنصيبي من وجهة نظر الشيعة. إن الإمام ينتخب من قبل أهل الحلّ والعقد على أساس النظرية الأُولى، بينما يتعين من قبل الرسولﷺ نفسه على أساس النظرية الثانية.

وبعبارة أُخرى: إنّ أهل السنّة يعتقدون بخلافة أبي بكر بعد الرسول ﷺ بينما يعتقد الشيعة بإمامة علي عليه السلام بعده. ومع هذا الاختلاف كيف يمكن بلوغ التقريب فضلاً عن التوحيد والوحدة؟

لكن ينبغي أن نلتفت إلى هذه المسألة وهي أنّ الاختلاف هنا يعدّ اختلافاً في فروع الدين من وجهة نظر أهل السنّة، وليس اختلافاً في أُصوله؛ وهو إذن بمستوى الاختلاف بين الشافعية والحنفية في المسائل الفقهية الفرعية، وهذا ما تشهد له مقولات علماء سنّة كثيرين، أمثال: الغزالي (المتوفّى ٥٠٥هـ) في كتابه "الاقتصاد في الاعتقاد" والآمدي (المتوفّى ٦٣١هـ) في كتاب "غاية المرام"،

والإيجي (المتوفّى ٧٥٧ هـ) في "المواقف"، والتفتازاني (المتوفّى ٧٩١هـ) في "شرح المقاصد".

وإليك نص عبارات العلماء آنفي الذكر:

يقول الغزالي:

" اعلم أنّ النظر في الإمامة أيضاً ليس من المهمات وليس أيضاً من فن المعقولات بل من الفقهيات ".(١)

يقول الآمدي:

" اعلم أنّ الكلام في الإمامة ليس من أُصول الديانات ولا من الأُمور اللابدّيّات بحيث لا يسع المكلف الإعراض عنها ولا الجهل بها ".(٢)

يقول الإيجي:

وهي " عندنا من الفروع وإنّما ذكرناها في علم الكلام تأسّياً عمّن قبلنا ".(٣)

ويقول التفتازاني:

" لا نزاع في أنّ مباحث الإمامة بعلم الفروع أليق، لرجوعها إلى أنّ القيام بالإمامة ونصب الإمام الموصوف بالصفات من فروض

---

١. الاقتصاد في الاعتقاد: ٢٣٤.

٢. غاية المرام في علم الكلام: ٣٦٣.

٣. المواقف: ٣٩٥.

الكفايات ".[1]

وعلى هـذا فشأن الاختـلاف في الإمامـةمن وجهـة نظـر أهل السنّـة هو شأن اختـلاف المذاهب الاربعـة مع الظاهـرية في قضيـة حجيـة القيـاس في استنبـاط الأحكـام الشرعيـة، حيـث إنّ الفقـه الظـاهري يعـدّ القيـاس باطـلاً، بينما تعدّه المذاهـب الأربعة حجـة ودليـلاً صحيحـاً. أو أنّ شأن الاختـلاف هنـا شـأن الاختـلاف بين الشافعية والحنفية حيث تعتبر الحنفيـة "الاستحسان" دليلاً وتعمل به، أمّا الشافعية فتقول في ذلك: "من استحسن فقد شرّع".

إذا كان هذا النوع من الاختلاف بين فقهاء السنّة لا يسبب أي فرقة ولا تناحر، فلتكن مسألة الإمامةكذلك.

وإذا قيل: إنّ الإمامـةأصل عند الشيعة وهي بمثـابة الأُصول الأُخـرى لـلإسـلام وحكمهـا حكم تلـك الأُصـول؟ فإنّ الإجـابـة ستكون:

إنّ الإمامة أصل للمذهب الشيعي لا لذات الدين الإسلامي الذي يتحقّق بأُصوله الإيمان والإسلام.

تقـول الشيعـة: إنّ أُصول الـدين ثـلاثـة وهي : (التـوحيـد، والمعاد، ورسالة خاتم الأنبياء) وبهذه يصدق الإسـلام والإيمان على من اعتقد بها؛ أمّا التشيع فيصـدق في الاعتقاد بقضيتين أُخريين هما

١. شرح المقاصد: ٢/ ٢٧١.

الاعتقاد بأنّ الخلافة لعلي عليه السلام، والاعتقاد بالعدالة الإلهية.

نعم؛ إنّ أوّل من عدّ الاعتقاد بخلافة الخليفتين من أُصول الدين هو السياسي المخضرم "عمرو بن العاص"، حيث اجتمع لأجل التحكيم في معركة صفين مع "أبو موسى" في "دومة الجندل"، ولكي يطعن بعلي عليه السلام عدّ خلافة الخليفتين في عداد أُصول الدين الأُخرى [1] و ما كان يهدف إلاّ الافتراء على الإمام علي عليه السلام.

إنّ عمل عمرو بن العاص أدّى بالبعض لان يعدّ هذه القضية من أُصول الدين من دون معرفة بجذور هذه القضية ومغزاها، وحتى "أحمد بن حنبل" اعتبر هذه القضية والاعتقاد بخلافة الخلفاء وأفضليتهم حسب ترتيب خلافتهم، من عقائد السنّة؛ كما يذكر ذلك في كتابه المعروف "السنّة" الذي دوّن فيه عقائد أهل السنّة.

"أفضل الناس بعد الرسول هو أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضوان الله عليهم وكلّهم خلفاء راشدون ومهتدون". [2]

إنّ حسن ظن "أبو جعفر الطحاوي" و"أبو الحسن الأشعري" بأحمد بن حنبل جعلهم يعدّون الاعتقاد بخلافة الخلفاء الأربعة أصلاً؛ كما نشهد ذلك في كتبهم. [3]

---

١. مروج الذهب: ٢ / ٣٩٢ـ٣٩٧.

٢. كتاب السنّة: ٤٩.

٣. الإبانة: ١٩٠، الباب ١٦.

من المسلّم به أنّ العاطفة الدينية أثّرت في اعتقادهم هذا أكثر من العـوامل الأُخـرى. وإذا كـانـوا واقعيين ومتكلمين محقّقين مثل الغزالي والآمدي لما ذهبوا إلى هذا الاعتقـاد ولما عدّوا هذه القضية في عداد أُصول الدين.

لقد عـاش المسلمون مع الرسـول الأكرم ﷺ وعاشروه سنين طويلة وحتـى اللحظات الأخيرة من عمره الشريف لم تطـرح مسألة الاعتقاد بخلافـة الخلفاء كأصل، وإذا كان الاعتقاد بخـلافة الخلفاء أصل من أُصول الدين فيجب أن نذعن بأنّ الإسلام كان ناقصاً!!

أختم حـديثي بهذا المقدار، وأنـا على استعداد لـلإجابـة عن أسئلة الحاضرين الكرام.

أسئلة وأجوبة

لقد طرحت أسئلة عديدة آنذاك نشير لأهم سؤال منها:

أين النصّ على الخليفة؟

لقد قلتم خلال خطابكم أنّ النـاس انقسموا بعد رسول الله ﷺ إلى قسمين: قسم يحمـل النظـريـة القـائلـة أنّ الإمـام ينتخبـه الصحابـة وهم أهل السنّة. وقسم يقول بـالنظرية القائلـة أن الإمام يتعيّن من قبل الـوحي الإلهي وهم الشيعـة؛ لكن هل مـن دليل على هذه الرؤية الأخيرة؟

الجواب

إنّ الشيعة تعتقد أن مقام الإمامةمقام تنصيصي، نصّ عليه من قبل الله عن طريق الرسول الأكرم ﷺ.

بعض النصوص الواردة في هذا المجال شأنها التأهيل وصنع الأرضية عند الناس؛ إلاّ أنّ بعضها الآخر أعلن عن التنصيب بصراحة ؛ ونحن هنا نذكر ثلاثة من تلك الموارد.

١ . حديث بدء الدعوة

إنّ الرسول الأكرم ﷺ بادر إلى التعريف بخليفته ووصيّه منذ بدء الدعوة يوم لم ينضو تحت راية رسالته إلاّ بضع عشرة نفر وذلك عند نزول قوله تعالى : ﴿**وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبين**﴾[١] فجمع الرسول الأكرم ﷺ أربعين رجلاً من زعماء بني هاشم وبني المطلب ودعاهم إلى عقيدة التوحيد قبل أن يصدع برسالته للجميع.

لقد أعلن الرسول ﷺ عن نبوته خلال تلك الدعوة التي دعا إليها ما يقرب من خمسة وأربعين شخصاً من بني هاشم، وصرّح آنذاك: " من يؤازرني على أمري هذا يكون وصيي وخليفتي وحامل لوائي... " وقد كرّر هذا الحديث ثلاث مرات، وفي كلّ مرة يقوم علي عليه السلام وحده ويعلن عن استعداده للمؤازرة، ولا يقوم غيره، فقال

١ . الشعراء: ٢١٤.

الرسول الكريم ﷺ آنذاك: "إنّ هذا أخي ووصيّي وخليفتي فيكم، فاسمعوا له وأطيعوه".

إنّ حديث الدعوة من الأحاديث المعتبرة التي ينقلها الطبري في تاريخه (ج ٢ ص٦٣ ـ ٦٤)وفي تفسيره (ج١٩ ص٧٥). و كذا الإمام أحمد بن حنبل في مسنده (ج١ ص ١٥٩)،والجميع ينقلها بأسانيد معتبرة وصحيحة.

٢ . حديث المنزلة

وهو من الأحاديث الأُخرى التى تعدّ دليلاً للشيعة على كون الخلافة تنصيصاً؛ ويراد منه الحديث الذي أدلى به الرسول ﷺ حول الإمام علي عليه السلام عند الحركة نحو "تبوك".

توضيح ذلك: إن الإمام عليه السلام كان يرافق الرسول الأكرم ﷺ في جميع غزواته، إلاّ في غزوة تبوك التي تبعد عن المدينة ٦٠٠ كيلومتراً، حيث جعل الرسول الأكرم ﷺ الإمام خليفة له على المدينة، الأمر الذي جعل المنافقين يبثون الشائعات حتى قالوا: ملّه وكره صحبته.

فتبع علي عليه السلام النبي ﷺ حتى لحقه في الطريق، قال: يا رسول الله خلّفتني بالمدينة مع الذراري والنساء حتّى قالوا ملّه وكره صحبته، فقال النبي ﷺ: يا علي إنّما خلّفتك على أهلي أما ترضى أن

تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي ".[١]

إنّ الحديث بموجب إضافة منزلة إلى هارون يحكي عن أنّ للإمام جميع ما كان لهارون من مقامات إلاّ النبوة. وهارون كان وزيراً وشريكاً لموسى في نبوته كما تقول ذلك الآيات ٢٩-٣٢ من سورة طه:

﴿وَٱجْعَلْ لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي* هارُونَ أَخِي* ٱشْدُدْ بِهِ أَزْرِي* وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾.

وبعد هذا الطلب أجابه الله في الآية ٣٦ من سورة طه بما يلي:

﴿... قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسىٰ﴾.

والآية ٥٣ من سورة مريم تشهد بنبوّة هارون:

﴿وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارونَ نَبِيّاً﴾.

وعلى هذا؛ فهارون كان وزيراً ونصيراً لموسى ونبياً كذلك؛ وقد أثبت الرسول الأكرم ﷺ جميع مقاماته للإمام علي عليه السلام إلاّ النبوة.

أمّا احتمال كون خلافة علي ونيابته عن الرسول المحكية في الحديث خاصة في زمن غزوة تبوك، فهو احتمال بعيد جداً وذلك للأدلّة التالية:

---

١ .راجع صحيح البخاري: ٦ / ٣٦ غزوة تبوك؛ وصحيح مسلم : ٧/ ١٢٠؛ فضائل الخمسة من الصحاح الستة: ١/ ٣٥١.

أوّلاً : لقد حصل للرسول الأكرم ﷺ مرّات أن ترك المدينة وترك خليفة أو خلفاء عليها، إلاّ أنّه لم ينطق بحديث مثل هذا الحديث في أيّة مرّة من تلك المرات.

فقد ترك الرسول الأكرم ﷺ المدينة سبعاً وعشرين مرة، إلاّ أنّه لم ينطق بهذه الكلمة إلاّ في هذه المرة فقط ، وهذا يكشف عن أنّ الاستخلاف الذي تحدّث عنه هذه المرة يختلف عن باقي الاستخلافات وأن شأنه غير مؤقت في زمن الغزوة ولم ينحصر فيه.

ثانياً: إذا كان الحديث عن الخلافة في ذلك الزمان فحسب لما كانت هناك حاجة للتطرّق إلى النبوة حيث قال: " إلاّ أنّه لا نبي بعدي " ، فإنّ هذه الجملة تثبت أنّ محور الحديث هو ثبوت مقامات هارون إلى الإمام علي عليه السلام ومن دون قيد (في حياة الرسول الأكرم)، لكن بما أنّ لازم هذا الحديث هو ثبوت مقام النبوة لعلي عليه السلام ، بادر الرسول ﷺ باستثناء ذلك ممّا أراد إثباته له فقال: " إلاّ أنّه لا نبي بعدي " .

إنّ هذين الموردين بمنزلة الإبلاغ الخاص بالأمر؛ أمّا الإبلاغ العام والرسمي، فقد حصل عند الرجوع من " حجة الوداع " في منطقة تدعى " غدير خم " ، حيث أمر الجميع آنذاك أن يباركوا له كأمير للمؤمنين، وها هنا توضيح الحديث وملابساته:

٣ . حديث الغدير

في السنة العاشرة من الهجرة غادر الرسول الأكرم ﷺ مع جمع غفير من المسلمين المدينة لأجل أداء الحج، وتعليم المسلمين المناسك بعد ما نالها شيء من التغيير خلال هذه الفترة وقد ألقى في الناس خطبة شاملة في " منى "، وبعد الفراغ من أعمال الحج غادر مكة قاصداً المدينة؛ إلاّ أنّ الوحي هبط عليه في نصف الطريق بالآية التالية:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَهُ وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاسِ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي القَومَ الكَافِرينَ﴾.(١)

إنّ مضمون الآية يحكي عن أنّ ما بلّغ به الرسول الأكرم ﷺ من أمر بدرجة من الأهمية بحيث إنّ عدم فعله بمثابة عدم تبليغ الرسالة الإلهية بالكامل. إنّ هذا لا يمكن أنّ يكون متعلّقاً ببيان حكم من الأحكام الإلهية؛ بل شدّة الخطاب تحكي عن مضمون رفيع المستوى وشديد الأهمية. لذلك أمر الرسول الأكرم ﷺبالنزول عن المراكب وبرجوع المتقدمين ووقوف المتأخّرين في أماكنهم، ليكون التجمّع في نقطة واحدة. أذّن المؤذّن، فصلّى الرسول بهم

---

١ . المائدة : ٦٧.

صلاة الظهر جماعة. وكان الطقس بدرجة من الحرارة بحيث كان البعض يضع بعض ثوبه فوق رأسه والبعض الآخر تحت قدميه. ثمّ ارتقى الرسول المنبر، وبعد الحمد والثناء لله، أدلى بحديث وسأل الصحابة بعض الأسئلة فأجابوه عنها:

" يا أيها الناس!... إنّي أُوشك أن ادعى فأُجيب، وإنّي مسؤول وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت وجهدت فجزاك الله خيراً.

قال: ألستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنته حق وناره حق، وأنّ الموت حق، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها وأنّ الله يبعث من في القبور؟

قالوا: بلى نشهد بذلك.

قال: اللّهم اشهد. ثم قال: أيّها الناس ألا تسمعون؟

قالوا: نعم.

قال: فإنّي فرط على الحوض، وأنتم واردون عليّ الحوض... فانظروا كيف تخلّفوني في الثقلين؟

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر كتاب الله... والآخر الأصغر عترتي ؛ وأنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض... فلا تقدّموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثم أخذ بيد علي فرفعها وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيّها الناس! من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا فليبلّغ الشاهد الغائب".

وبعدما نزل الرسول الأكرم ﷺ من المنبر جاءه الوحي بالآية التالية:

﴿اليَومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتي وَرَضيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً ...﴾.(١)

وبعد ذلك جاء القوم للامام علي عليه السلام جماعات جماعات يهنّئونه على هذا التنصيب. وبهذا بيّنت الإمامة بشكل رسمي.

إنّ محور الحديث في جميع الموارد كان على أساس من التقريب ورفع سوء الظن، وما كنت أُشير إلى أدلّة الشيعة إلّا عند ذكر أدلّة أهل السنّة، إلاّ أنّي هنا تحدّثت بصراحة أكثر، وذلك لأنّ بعضاً من الشيعة العراقيين كانوا حاضرين في المجلس، لذا أعرضت عن الإجمال لأكشف عن وجه الحقيقة من دون تستر أو إهانة للآخرين.

---

١. المائدة: ٣.

اختتم المجلس وقد شاهدت البشاشة والابتسامة ترتسم على الوجوه وفي الصباح نقلت بعض الصحف مقتطفات من محاضرتي وأشارت اليها، نأتي هنا بفقرتين ممّا نقل عن المحاضرة:

د . الخصاونة استقبل باليرموك الفقيه السبحاني.

استقبل الدكتور فايز الخصاونة في مكتبه سماحة آية الله جعفر السبحاني مدرّس الفلسفة والأُصول في مؤسسة الإمام الصادق في إيران، يرافقه السيد محمد علي السبحاني السفير الإيراني في عمّان خلال زيارتهما للجامعة بهدف الاطّلاع على مراحل التطوّر الذي شمل هذه الجامعة في مختلف المجالات.

وقد كتبت صحيفة (الرأي) الواسعة الانتشار ما يلي:

أربد ـ الرأي ـ زار الفقيه آية الله جعفر سبحاني، مدير مؤسسة الإمام الصادق في مدينة قم الإيرانية جامعة اليرموك والتقى الدكتور فايز الخصاونة، رئيس الجامعة بحضور السفير الإيراني في عمّان حيث بحث الجانبان آفاق تعزيز العلاقات ما بين الجامعة والجامعات الإيرانية.

وألقى آية الله سبحاني محاضرة حول المذاهب الإسلامية وعناصر الوحدة أكّد فيها أن الوحدة الإسلامية أُمنية كل مخلص لهذه الأُمّة مشيراً إلى أنّ الوضع الراهن للأُمّة الإسلامية يبعث على القلق، وإذا ما استمر هذا الوضع فإنّ المسلمين سيكونون فريسة سهلة

للمخططات الاستعمارية.

وفي ختام محاضرته أوضح آية الله سبحاني أن المذاهب الفقهية الأربعة، مضافاً إلى الجعفرية والزيدية كلّها مذاهب فقهية، الاختلاف يكمن فقط في طريقة فهم أصحابها لما ورد في الكتاب والسنّة، وهذا أمر طبيعي بعد مضيّ ١٤ قرناً من العصور الإسلامية!

انتهت المحاضرة، وودّعت الحاضرين، ثم توجهنا إلى قاعة الطعام، وقد دار الحديث أثناء تناول الطعام عن وحدة المسلمين؛ ثم غادرت الجامعة باتجاه السفارة وسط توديع حار من قبل المدير والآخرين.

اللقاء مع السيد أحمد حسين يعقوب

كان لقاؤنا مع السيد أحمد حسين يعقوب (من محافظة جرش شمالي الأردن) عصر ذلك اليوم. إن هذا الاقليم ذو صبغة عشائرية وسكان هذا الإقليم رغم تحضّرهم وعيشهم في المدن دون القرى لا زالوا يحافظون على التقاليد العشائرية. لقد قام السيد في السنوات الأخيرة بسلسلة من الدراسات، وله اتصالات بعلماء شيعة، استبصر إثر تلك الدراسات والاتصالات وأصبح يدافع عن التشيّع بقوّة. إضافة إلى ذلك دوّن كتباً في هذا المجال، ترجمت إلى لغات عديدة. كما أنّ له مقالات عن أهل البيت عليهم السلام نشرت في الصحف الأردنية.

وإليك جملة من أعماله المنشورة:

١ .النظام السياسى في الإسلام.

٢. مرتكزات الفكر السياسِي في الإسلام والرأسمالية وفي الشريعة.

٣. نظرية عدالة الصحابة والمرجعية السياسية في الإسلام.

٤.الخطط السياسية لتوحيد الأُمّة.

٥. طبيعة الأحزاب السياسية العربية.

٦. المواجهة مع رسول الله وآله.

٧. الإمامةوالولاية.

٨. مساحة للحوار.

٩. مختصر المواجهة.

١٠. كربلاء الثورة المأساة.

١١. الهاشميون في الشريعة والتاريخ.

في هذا اللقاء الذي تم عصر يوم الثلاثاء في السفارة، قدّم لي السيد آخر كتبه الذي تناول فيه حياة هاشم وآله إلى الإمام الحسين عليه السلام.

تحدّث في هذه الأثناء عن التقدّم الحاصل في الأردن لأجل التعريف بالمذهب الشيعي. مبدئياً أقول: إنّ كُتَّاباً أردنيين كهذا الدكتور قادرون على التعريف بالمذهب أكثر من غيرهم، وهم في

النهايـة أقدر على التقـريب. على أي حال؛ نـأمل منهم أن يعـرّفوا التشيع كما هو، ويزيلوا حجب الجهل عن أذهان الآخرين.

وحسب المألوف في الليالي السابقة، كنّا على موعد مع الإخوة الأعزة في السفـارة لأجل إقامة مـراسم العزاء في السفـارة بعد إتمام صلاتي المغرب والعشاء جماعة.

إنّ تفسير كلمات سيد الشهداء لأُولئك الذين تنبض قلوبهم بحب إيـران والثورة لـذو لذة عظيمـة. لذا تعـرضنا آنـذاك إلى هذا المقطع التاريخي الـذي ينقله محمد بن جريـر الطبري (المتوفّى ٣١٠ هـ) في تاريخه:

واجه الإمام أثناء مسيره باتجاه الكوفة عسكر (الحر بن يزيد الريـاحي) الذي كان مبعـوثاً من قبل عبيـد الله بن زيـاد. وتبادلا آنـذاك الحديث، ثـم خطب الإمـام في العسكريـن نأتي بقسـم من خطبته هنا:

" من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّة رسول الله، يعمـل في عباده بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قـول كان حقاً على الله أن يدخلـه مدخله، ألا وإنّ هؤلاء قـد لزمـوا طاعـة الشيطان، وتـركوا طـاعة الـرحمن، وأظهروا الفساد وعطّلوا الحدود، واستأثروا بالفي ء وأحلّوا حرام الله وحرّموا حلاله ".[1]

---

١ .تاريخ الطبري : ٤ / ٣٠٤ ، حوادث عام ٦١ من الهجرة.

الفصل الرابع

زيارة مؤسسة آل البيت عليهم السلام

وجامعة الأردن

انحصر برنامجنا يوم الاثنين الموافق ٤/ ٤/ ١٩٩٨ بتفقّد مؤسسة آل البيت عليهم السلام ولقاء عميد جامعة الأردن وإلقاء محاضرة وسط اجتماع للأساتذة والطلاب هناك.

تحركت قبل الساعة التاسعة برفقة السيد حميد مكارم المستشار الثقافي للسفارة الإيرانية في الأردن باتجاه المؤسسة. وقد استقبلنا بحفاوة في مدخل المؤسسة كلّ من السادة الدكتور "إبراهيم شبّوح" معاون مدير المؤسسة، والدكتور "فاروق جرار" و"حسين الرواشدة" ثم أرشدنا إلى مكتب المعاون. وبعد الشكر والترحيب من قبل الدكتور شبّوح، ساقنا الكلام إلى الحديث عن نشاطات المؤسسة في الموضوعات المختلفة وبخاصة موضوع التقريب بين المذاهب الإسلامية، أشار الدكتور شبّوح إلى أنّ المؤسسة قد تأسّست

عام ١٩٨٢ م، وقد أقامت مذّاك خمسة مؤتمرات في مدينة عمّان والرباط ولندن، وقد تناولت هذه المؤتمرات دراسة موضوع حقوق البشر في الإسلام، والوقف الإسلامي، والزكاة، والتقريب بين المذاهب.

وموضوع المؤتمر في السنة المقبلة هو " موقع الاجتهاد في الإسلام " .

وعندما بلغ حديثه هنا اغتنمت الفرصة فبادرته قائلاً:

" إنّ الاجتهاد هو أحد أُسس خاتمية رسالة الرسول الخاتم ﷺ وإذا وضعنا هذا الأصل والأساس إلى جانب فإنّ شريعة الإسلام ستواجه مشكلة لا حل لها؛ وذلك لأنّها سوف لا تقوى على بيان أحكام المستجدات من الأُمور التي لم يتناولها القرآن ولا السنّة، فإنّ المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ واجهوا قضايا ما كان القرآن ولا السنّة قد تعرض لها (رغم أنّه كان بالإمكان استخراج أحكامها من القوانين الكلية).

ومن هذا الجانب التجأ علماء الإسلام في جميع المراحل إلى الاجتهاد لحل المشاكل الفقهية للمجتمع الإسلامي من هذا الطريق، لذلك تعدّدت المذاهب الفقهية، وبعضها من قبيل مذهب " ليث " في مصر، ومذهب " الأوزاعي " في الشام وغيرهما قد انقرضت وبقيت المذاهب الأربعة فقط.

إنّ لدى أتباع أهل البيت عليهم السلام مصدراً مهماً وعدلاً للقرآن (كما نعته حديث الثقلين)، رغم ذلك لم يستغنوا عن الاجتهاد ، وذلك لأنّ الإمام المعصوم لم يكن متواجداً معهم على الدوام بسبب الظروف الصعبة التي كانوا يعيشونها، ولذلك أستفادت المدارس الفقهية الشيعية في العراق و إيران من الاجتهاد حتى في زمن حياة الائمة؛ وقد كان في زمن الإمامين الباقر والصادق عليهما السلام فطاحل مثل أبان بن تغلب(المتوفّى ١٤١هـ) و زرارة بن أعين (٨٠ ـ ١٥٠هـ) ومحمد بن مسلم الطائفي الثقفي (٨٠ـ ١٥٠ هـ) وشخصيات أُخرى، دخلوا ساحة الاجتهاد وأضفوا على فقه الشيعة بفضل سعيهم ومثابرتهم العلمية غنى وافراً. وقد تعرّضت إلى مراحل الاجتهاد عند الشيعة بالتفصيل في كتاب " تاريخ الفقه وأدواره" وقد نشر مع كتاب " طبقات الفقهاء " .

إنّ الاجتهاد عند الشيعة مطلق؛ أي أنّ المجتهد الشيعي يستنبط الحكم من خلال الكتاب والسنّة والإجماع والعقل من دون قيد التلاؤم مع مذهب خاص؛ بينما الاجتهاد عند أهل السنّة في القرون الأخيرة مقيد بهذا القيد، فهو يجتهد من خلال مذهب خاص وفي إطار فتاوى ذلك المذهب فالفقيه الحنفي مثلاً، يستنبط الحكم من خلال الأُصول والفتاوى المأثورة عن أبي حنيفة، ولا علاقة له بالحكم الواقعي لله، وحتى لو كان الحكم المستنبط من القواعد

والأصول المذهبيـة مخالفاً لـلأدلة الأُخـرى، إلا أنّه لا يعتني بـذلك باعتباره مفتياً مقلّداً ولا يجيز لنفسه الخروج عن دائرة فتاوى إمامه.

إنّ مشاكل أهل السنّة ومتاعبهم بدأت منذ أن ألغوا المذاهب الفقهية واعترفوا بـالمذاهب الأربعة فحسب، وهم بذلـك قد سلبوا حق الـرأي والحرية الفكريـة عن الآخرين وأجبروهم على العمـل والسعي في إطـار المذاهب الأربعـة فقـط. ومنذ ذلـك الحين سعى المفتون الـذين كـانوا مقلّـدين لأحد الأئمـة أن يستنبطوا آراء إمـام المذهب فقط ولا يشذّوا عن ذلك.

إنّ لغلق بـاب الاجتهاد تـاريخاً مأساويـاً؛ يقول المقـريزي في كتاب الخطط: استمرت ولاية القضاة الأربعة من سنة ٦٦٥ هـ حتى لم يبق في مجموعة أمصار الإسلام مذهب يعرف من مذاهب الإسلام غير هذه الأربعة ، وعودي من تمذهب بغيرها ، وأنكر عليه، ولم يول قـاضٍ ، ولا قبلـت شهـادة أحـد ، ولا قـدّم للخطـابـة والإمـامـة والتدريس أحد مالم يكن مقلّـداً لأحد هذه المذاهب ، وأفتى فقهاء هـذه الأمصـار في طول هـذه المدة بـوجـوب اتّبـاع هـذه المذاهب وتحريم ماعداها ، والعمل على هذا إلى اليوم .[1]

لقـد تفضّل علينـا السيـد "نـاصر الـديـن الأسـد" رئيس مؤسسة آل البيت عليهم السلام في الرحلة السابقة بإهداء عدد من منشورات

---

١ . الخطط المقريزية : ٢ / ٣٣٢ـ ٣٣٤.

مؤسسته إلى مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام ، ولأجل رد الجميل أهدينا لإخواننا الأعزاء دورة من كتاب " مفاهيم القرآن " في سبعة مجلدات. وقد ذكرت لهم أن تاريخ الاجتهاد تجدونه مدوّناً بصورة موجزة في الجزء الثالث من هذه المجموعة. وقد أحسست أن الحاضرين في المجلس أحبوا تعيين الصفحات فأشرت إلى أنّ البحث قد طرح في الصفحات (٢٧١ـ٢٨٨).

وقد افتقدت السيد " ناصر الدين الأسد " فأجابوا أنّه مسافر.

إنّ وقت اللقاء كان محدوداً جداً؛ وقد تقرر أن يكون لي لقاء مع مدير الجامعة وأساتذتها في قاعة المؤتمرات. وفي نفس الوقت ما أردت أن أترك الجامعة دون بيان رأيي في قضية التقريب بين المذاهب، لذا أشرت إلى أنّ التقريب هو أحد أُمنيات المصلحين، إلاّ أنّ حقيقة التقريب (لا على مستوى شعار) رهن معرفة المذاهب الإسلامية، ولا يمكن التقريب دون المعرفة.

بعبارة أُخرى: إنّ الجهل بعقائد الآخرين يؤدِّي إلى الابتعاد عنهم. آملين أن تساهم مؤسسة آل البيت عليهم السلام بتعريف واقع المذهب ووجهه الحقيقي.

وسنرى حينئذ أنّ المشتركات هي الغالبة.

وحسب ما عبّر المعلم الكبير المرحوم (السيد عبد الحسين شرف الدين) مخاطباً علماء أهل السنّة في لبنان: " ما يجمعنا أكثر ممّا

يفرّقنا " . أذكّر هنا بأنّ الجمهورية الإسلامية خطت لأجل التقريب، خطوات جبارة، وقد أسّست لهذا السبيل مؤسسة باسم " مجمع التقريب بين المذاهب " ، وهي تنشر كل شهرين مجلة تحمل عنوان " رسالة التقريب " .

وقد طلب الحاضرون منّا إرسال هذه المجلة؛ وأنا بدوري عكست طلبهم عند رجوعي من الأردن، إلى مكتب مجمع التقريب.

انتهى لقاؤنا مع الهيئة العلمية لمؤسسة آل البيت عليهم السلام ؛ وأسرعت في الذهاب إلى السفارة، لأجل الذهاب بمعية السيد " محمد علي السبحاني " إلى الجامعة المذكورة.

المحاضرة في جامعة الأردن

إنّ الأردن قياساً للدول المجاورة له يعدّ بلداً جامعياً. إلى مستوى أنه يستقبل طلاّباً أجانب كما يصدّر أساتيذه إلى الخارج. أي أنّ لديه جامعات ومقاعد دراسية جامعية أكثر من حاجة البلد ومن المؤهّلين لدخول الجامعات هناك، والفروع العلمية متنوعة.

والجامعة الكبرى هناك هي جامعة الأردن التي تقع في عمّان. وهي من حيث المساحة والتشجير والهندسة الجميلة، قليلة النظير، كما أنّها أهل لدولة يقال أنّ نسبة الأُميّة فيها لا تزيد عن خمسة بالمائة، وعدد نسخ الصحف اليومية شاهد صدق على النسبة.

لقد أعلن عن محاضرتي من ذي قبل في الصحف الأردنية. وقد نشرت صحيفة "الرأي" الواسعة الانتشار الإعلان التالي:

فقيه إيراني يحاضر بالجامعة الأردنية اليوم.

"عمّان ـ الدستور: تستضيف الجامعة الأردنية صباح اليوم (الاثنين) سماحة الفقيه آية الله جعفر السبحاني من الجمهورية الإسلامية الإيرانية لإلقاء محاضرة بعنوان "التقريب بين المذاهب الإسلامية".

وتقام المحاضرة في بهو "محمد علي مدير" الواقع في مبنى إدارة الجامعة.

إنّ الإعلان عن المحاضرة أدّى إلى حضور جمع غفير من الناس، وكان الحضور بدرجة من الكثرة حيث أرشدنا إلى المدرج عند دخولنا الجامعة مباشرة دون توقف واستراحة في الإدارة لأجل التعرف على الجامعة وخصوصياتها.

إنّ موضوع المحاضرة كما أعلن هو "التقريب بين المذاهب"، وعندما وقفت خلف المنصّة شرع مقدّم البرنامج بالكلام، وبعد أن رحّب بي وشكرني على قبولي الدعوة، بدأ بتقديمي للحاضرين؛ وفي هذه الأثناء بعث لي سفير إيران المحترم برسالة صغيرة قد أشار فيها إلى أنّ من الحضّار شخصيات حكومية رفيعة المستوى من قبيل "الدكتور عبد السلام العبادي" وزير الأوقاف،

و" الشيخ عز الدين الخطيب التميمي " قاضي القضاة، وجمع غفير آخـر من طبقـات متفـاوتة، ممّـا دعـاني أن أكـون أكثر جـديـة في محاضرتي.

ذكر مقدّم البرنامج (الذي يبدو أن معلـوماته قد أخذها من السفارة أو من مكان آخر) أن تاريخ ومحل الولادة عبارة عن (تبريز ١٣٤٧هـ.ق. الموافق ١٩٢٨م) وأضاف : أنّ المحـاضر بعد أن أتمّ دراسته الابتدائيـة في محل ولادته غادره متوجهاً إلى مـدينة قم لأجل الـدراسـات العليـا، وقد استفـاد مـن أساتيـذ مـن قبيل "آيـة الله البروجردي " و" آية الله الطباطبائي " و" سماحة الإمام الخميني " ﷺ ثم أضاف: إنّ محاضر المجلس قد درس الفقه والأُصول عند الإمام الخميني مدة ثلاث عشرة سنة. وقد نشر دروسه لأوّل مرة في مجلدين تحت عنـوان " تهذيـب الأُصـول "، ولـه أعمال في مختلـف العلـوم الإسلامية نشرت في أكثر من مائة مجلد.

إنّ للمحـاضر مؤسسـة للتعليم والتحقيق بـاسم " مؤسسـة الإمام الصادق عليه السلام " في مـدينـة قم، وهي تضـمّ إضـافـة إلى قسم التحقيق قسم تدريس علم الكلام في قالبه القديم والجديد، وتُخرِّج كل سنة خمسين طالباً بمستوى الدكتوراه لأجل إفادة المجتمع.

ثم طلب مني أن أبدأ محاضرتي عـن " التقريب بين المذاهب الإسلامية " .

وأنا كالمعتاد بدأت بذكر الله والحمد والثناء عليه، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وآله وصحبه المنتجبين بدأت محاضرتي هكذا:

قال الحكيم في محكم كتابه الكريم:

﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ... ﴾.[1]

ثم شكرت مدير الجامعة وزملاءه المحترمين على منحهم إيّاي فرصة الحديث عن التقريب بين المذاهب في جوّ ملؤه المودة والصداقة.

إنّ ذات التحدّث من قبل عالم إيراني في اجتماع من الإخوة الأردنيّين وغيرهم دليل على قرب تحقّق أحد أكبر آمال المصلحين الغيورين لمجتمعنا وهو التقريب بين المذاهب لكي نواجه الأعداء ـ تحت ظل هذا التقريب ـ بيد واحدة، ولكي يكون بيننا تعاون وثيق في المجالات السياسية والثقافية والاقتصادية.

وإليك نص المحاضرة:

---

١ . آل عمران : ١٠٣.

عناصر الوحدة الإسلامية وموانعها

عناصر الوحدة

الـوحدة الإسـلاميـة أُمنية يتبنّـاها كـل مخلص لـه أدنى إلمام بالأوضاع المحدقة بالإسلام والمسلمين ولا يشكّ في أنّ المسلمين في أمس الحاجة إلى الوحدة وتقريب الخطى، لأنّ فيه عزّ الإسلام ورفع شـوكـة المسلمين وتقـويـة أواصر الأُخـوّة بينهـم، وانّ في التفـرقـة اضمحـلال الإسـلام وتشتت شمـل المسلمين وتكتلهـم إلى فـرق وطوائف متناحرة.

وقد حثّ سبحانه على الوحدة بقوله: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاٰ تَفرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَـةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْواناً ... ﴾ .[1]

ويقول أيضـاً: ﴿هَـذا صِراطِـي مُسْتَقيماً فَـٱتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُـوا السُّبُلَ فتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون﴾ .[2]

وفي الوقت نفسـه يذم التفرقه ويشجبهـا ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ

---

١ .آل عمران : ١٠٣.

٢. الأنعام : ١٥٣.

فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيءٍ﴾.(١)

ويقول سبحانه: ﴿وَلاَ تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكينَ* مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكانُوا شِيَعاً﴾.(٢)

إنّه سبحانه يعدّ التفرقة والتشتت من أنواع البلايا والمحن التي تجابه الأُمم ويقول: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذاباً مِنْ فَوقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الآياتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ﴾.(٣)

فانطلاقاً من وحي تلك الآيات يجب على كلّ مسلم واعٍ، الدعوة إلى توحيد الكلمة للحيلولة دون التشتت والتفرّق.

إنّ الوضع الراهن للأُمّة الإسلامية يبعث على القلق، واستمرار هذا الوضع يجعلهم ضحية للخطط الاستعماريه التي الهدف من ورائها الإجهاز على المسلمين واستئصال شأفتهم.

إلاّ أنّ الذي يبعث النشاط في قلوبنا ويزيدنا أملاً بالغد المشرق هي الآيات الدالة على أنّ المستقبل للصالحين من عباده، قال سبحانه: ﴿أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصّالِحُون﴾(٤) وقال سبحانه: ﴿وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ

---

١. الأنعام: ١٥٩.
٢. الروم: ٣٢.
٣. الأنعام: ٦٥.
٤. الأنبياء: ١٠٥.

وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوارِثِين﴾ .(١)

هذه سنة الله تبارك وتعالى لكنّها رهن شروط وخصوصيات كفيلة بتحقيق ذلك الوعد.

إنّه سبحانه يصف المسلمين بأنّهم أُمّة واحدة ويقول: **﴿إِنَّ هذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاَعْبُدُون﴾** .(٢)

والأُمّة مشتق من أم م، والمادة تحكي عن القصد والهدف والقيادة والزعامة، وعلى ضوء ذلك فلا يكون المسلمون أُمّة حتى يكون لهم هدف ومقصد أسنى وقيادة وزعامة حكيمة، فالأُمّة الواحدة لها ربّ واحد وكتاب واحد وشريعة واحدة وقيادة وهدف واحد. وهو نيل السعادة الدنيوية والأُخروية.

وثمة سؤال يطرح نفسه، ما هي العناصر الكفيلة لتحقيق الوحدة، إذ تحقّقها مع وجود التفرقة والاختلاف أمر متعذّر؟

هذه العناصر تكمن في التوحيد في العقيدة والشريعة لا في الوطن ولا في الجنس ولا في اللون ولافي اللغة ولا في الطائفية ولا في القومية، والإسلام قد شطب بخط عريض على تلك الأفكار، ولم يعر لها أهمية تذكر بل حذّر المسلمين من الانخراط تحت لوائها والانجراف معها، قال سبحانه: **﴿يا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ**

---

١. القصص : ٥.

٢. الأنبياء : ٩٢.

ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ .(١)

وقال الرسولﷺ: "ليست العربيـة بأب والد وانّما هـو لسان ناطق" فعلى ذلك يجب الإلماع إلى العناصر التي تكمـن فيها الوحدة وتبتني عليها أواصر الاخوة.

فالعناصر العقائدية هي:

١ .التوحيد ومراتبه

التوحيـد بمعنى الاعتقاد بـوجود إلـه واحد لا شريك لـه، له الأسماء الحسنى والصفات العليا، عالم قادر، حي لا يموت، إلى غير ذلك من صفات الجمال، والجلال وليس في صحيفة الـوجود خالق، مدبّر ومعبود، سواه من العناصر البنّاءة للوحدة.

وقد تثـار بحوث كـلامية حـول صفاتـه تبارك وتعـالى لكنّها بحوث لاتمت إلى صميم الإسلام بصلة.

فهل صفـاته سبحـانه عين ذاتـه أو زائدة عليها؟ فلكـلّ من الرأيين دليله ومنطقه إلا أنّ هذه البحوث ـ مع تثمين جهود باحثيها ـ يجب أن لاتثير الـريبة في غرضنا الـذي نرمي إليه ألا وهو الـوحدة الإسلامية الكبرى.

---

١ . الحجرات : ١٣.

لا أنسى وأنتم أيضاً لا تنسون انّ مسألة خلق القرآن وحدوثه أو قدمه قد شغل بال المسلمين أيّام الخلافة العباسيّة سنين طوال، وقد شقّ عصا الوحدة وشتّتهم إلى طوائف وأُريقت دماء ونهبت أموال، وما ذلك إلاّ لأنّ طائفة منهم كانوا يقولون بقدم القرآن والطائفة الأُخرى بحدوثه مع أنّها بحوث كلامية لا تمت إلى صميم الإسلام بصلة، فالبحث والحوار العلمي والانصياع للدليل شيء، وكون هذا الاختلاف يثير كامن العداء والشقاق ويصبح ـ لا سمح الله ـ هدفاً لسهام اللوم والتكفير شيءآخر، فلنفسح المجال للبحث العلمي دون أن نمسّ بالوحدة الإسلامية الكبرى.

٢. النبوة العامة والخاصة

إنّ من عناصر الوحدة الإيمان بأنّه سبحانه تبارك وتعالى بعث أنبياءً ورسلاً لترسيخ التوحيد بين الناس وشجب أيّ عبادة سواه.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.[1]

وهذه هي العقيدة المشتركة بين الأُمّة الإسلامية جميعاً، كما أنّ الإيمان بخاتمية الرسول وانّه لانبي ولارسول بعده من صميم

---

١. النحل: ٣٦.

العقيدة الإسلامية، ومن أنكر الخاتمية وادّعى استمرار الوحي بعد النبي ﷺ أو إمكان ظهور نبي جديد مع شريعة جديدة، فقد خرج عن ربقة الإسلام، لأنّ ذلك متعارض مع العقيدة الإسلامية، قال سبحانه : ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجالِكُمْ وَلٰكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخاتَمَ النَّبِيّين وكانَ اللهُ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً﴾ .[1]

٣. الإيمان بالمعاد

الايمان بالمعاد وانّ الدنيا قنطرة الآخرة وليس الموت بمعنى فناء الإنسان من العقائد المشتركة بين المسلمين ويعدّ أصلاً من الأُصول التي جاء بها الأنبياء قاطبة، ولولاه لما قام للدين عمود، ولذلك نجد انّ القرآن يعطف الإيمان بالمعاد، على الإيمان بالتوحيد، ويقول: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ وَعمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ [2] وفي آية أخرى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ ذٰلِكَ خَيْرٌ﴾ .[3]

فهذه الأُصول الثلاثة، تشكّل حجر الزاوية للعقيدة الإسلامية ويدور عليها رحى الإيمان والكفر وقد صبّ النبي ﷺ اهتمامه على هذه الأُصول وجعلها حدّاً فاصلاً بين الإيمان والكفر، فمن آمن بها

---

١ . الأحزاب : ٤٠.

٢ . البقرة : ٦٢.

٣ . النساء : ٥٩.

فقد دخـل في زمرة المسلمين ومن أنكر واحـداً منها فقد خـرج عن ربقة الإسلام، وها نحن نـذكر بعض ما روي عن النبي ﷺ في هذا المضمار لتعلـم مـن خـلالها العنـاصر الكفيلـة بتحقيق الأُخــوة الإسلامية.

روى البخاري عن عمر بن الخطاب أنّ عليّاً صرخ، يا رسول الله: على ماذا أقاتل؟ فقال ﷺ: قاتلهم حتى يشهـدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمّداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلاّ بحقها وحسابهم على الله.(١)

روى الإمام الشافعي عن أبي هـريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: لا أزال أقاتـل الناس حتى يقولـوا لا إله إلا الله فـإذا قالوهـا، فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله.(٢)

وروى الإمام الرضا عليه السلام وهـو أحد أئمّـة أهل البيـت عن آبائه، عن علي عليه السلام قـال النبي ﷺ: أُمرت أن أُقـاتل النـاس حتى يقولوا لاإله إلاّ الله، فإذا قالوها حرم عليّ دماؤهم وأموالهم.(٣)

---

١ . رواه البخاري في صحيحه: ١ / ١٠ كتاب الإيمان .

٢ . الأُم: ٦ / ١٥٧.

٣.البحار : ٦٨/ ٢٤٢.

وحدة الشريعة

إذا كانت العقيدة بعناصرها الثلاثة هي الركيزة الأُولى للوحدة، فوحدة الشريعة عامل آخر لجمع شمل المسلمين وتوحيد كلمتهم وصفوفهم.

فالمسلمون عامة في مجال العبادة يقيمون شعائرهم الدينية من صلاة وصوم وزكاة وحج وجهاد، فلا تجد مسلماً ينكر واحداً من تلك الأُمور.

نعم بين المذاهب الفقهية اختلاف في جزئيات المسائل ولكنّها شروط وآداب لاتمسّ بجوهر الإسلام، فالمسلم من يؤمن بالشريعة التي جاء بها النبي ﷺ ويقيمها حسب الفقه الذي يقلّده، واختلاف العلماء لايمس جوهر الشريعة، لأنّه اختلاف سطحي في جزئياتها وخصوصياتها.

فكما أنّ العبادات جزء من الشريعة، فالمعاملات بمعناها الأخص أو الأعم جزء من الشريعة أيضاً، فالبيع والإجارة والوكالة، والمضاربة والمساقاة والمزراعة معاملات بالمعنى الأخص، كما أنّ النكاح والطلاق والوصايا ونظائرها معاملات بالمعنى الأعم، فالمسلمون متحدون في هذا المجال من الشريعة يبيحون ما أباحت الشريعة ويحرّمون ما حرّمت الشريعة.

وعلى ضوء ذلك فالشريعة هي الركيزة الثانية للوحدة، واختلاف الفقهاء فيها لا يخل بها.

وحدة القيادة

إنّ التوحيد في القيادة هي الركيزة الثالثة لوحدة الأُمم، فالجميع يؤمن بأنّ القيادة لله سبحانه ولرسوله ولأُولي الأمر مستلهمين من قوله سبحانه: ﴿**أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ**﴾.[1]

فالقيادة الإسلامية ليست قيادة سياسية بحتة بل قيادة دينية تقود المجتمع إلى السعادة والرفاه تحت ظل تعاليم الإسلام وحيث إنّ إطاعة أُولي الأمر جاءت مباشرة بعد إطاعة الرسول في الآية، فيلزم أن تكون طاتهم شبه إطاعة الرسول، ولأجل ذلك يجب أن يتوفر فيهم شروط كثيرة تخوّل لهم صلاحية الزعامة.

وحدة الهدف

تقع على عاتق الأُمّة الإسلامية مسؤولية خاصة وهي سوق المجتمع نحو المثل الأخلاقية والمكارم الإنسانية، قال سبحانه: ﴿**كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنّاسِ تَأْمُرونَ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَونَ عَنِ**

١ . النساء : ٥٩.

الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾ .[١]

فالطوائف الإسلامية برمتها لهم رؤية مشتركة في الهدف الذي جاء به الإسلام ودعا إليه.

والهدف هو سيادة الدين في الأرض، لتكون السيادة لله وحده ويكون الدين ظاهراً على سائر الأديان، قال سبحانه: **﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾**.[٢]

هذه الوحدات الأربع، أي: وحدة العقيدة، وحدة الشريعة، وحدة القيادة، ووحدة الهدف إذا تمسّك المسلمون بأهدابها تعود إليهم السعادة المسلوبة والكرامة المنشودة. قال رسول الإسلام ﷺ: «إنّما مثل المسلمين كالرجل الواحد إذا وجع منه شيء تداعى له سائر جسده».[٣]

تكفير أهل القبلة

إنّ تكفير أهل القبلة ما لم ينكر أحد منهم شيئاً من تلك الأُصول الثلاثة ممّا لم يجوزه أحد من أئمّة المسلمين.

---

١ . آل عمران : ١١٠.

٢ التوبة : ٣٣.

٣. مسند أحمد بن حنبل : ٤ / ٢٧٨.

قال ابـن حزم نقـلاً عن الفقهاء العظـام كالإمـام أبي حنفية والشافعي وسفيان الثوري: انّه لا يكفّر ولا يفسّق مسلم.[١]

وقـال السرخسي: لمّا حضرت الشيخ أبـو الحسـن الأشعـري الوفـاة بداري ببغـداد أمرني بجمـع أصحابـه فجمعتهم له، فقـال: اشهدوا عليّ انّي لا أُكفّـر أحداً من أهل القبلة بـذنب، لأنّي رأيتهم كلّهم يشيرون إلى معبود واحد والإسلام يشملهم ويعمّهم.[٢]

ولقد أحسن الإمام الأشعري حيـث أسمّى كتابه بـ" مقالات الإسلاميين واختـلاف المصلين " فأضفى على جميع الطـوائف لفظ الإسلاميين وجعل اختلافهم اختلاف أهـل القبلة كما يشعر بذلك قوله اختلاف المصلين.

وقال القاضى الإيجى: جمهـور المتكلمين والفقهاء على أنّه لا يكفّر أحـد من أهل القبلة، واستـدلّ على مختاره بقولـه: إنّ المسائل التي اختلـف فيها أهل القبلـة من كـون اللـه تعالى عـالماً بعلم أو مـوجداً لفعـل العبد أو غير متحيّـز ولا في جهة ونحـوهـا لم يبحث النبي عن اعتقاد من حكم بإسلامه فيها ولا الصحابة ولا التابعون فعلم أنّ الخطأ فيها ليس قادحاً في حقيقة الإسلام.[٣]

---

١. الفصل : ٣ / ٢٤٧.

٢. اليواقيت والجواهر : ٥٨.

٣. المواقف : ٣٩٢.

إلى غير ذلك من كلمات علمائنا الأبرار تبعاً للسنّة النبوية المنكرة لتكفير المسلم.

موانع الوحدة

قد عرفت عناصر الوحدة وما يمكن أن يجمع به شمل المسلمين ولكن مع ذلك ثمة عوامل أُخرى تعرقل خطا الوحدة، فعلى المعنيّين بوحدة المسلمين دراسة عوامل التفرقة ليعالجوها كي لا تكون سدّاً أمام تلك الأُمنية، وإليك دراسة هذه العوامل:

١ . المذاهب الكلامية والفقهية

إنّ المسلمين ينقسمون في المذاهب الكلامية إلى طوائف كالأشاعرة والمعتزلة والماتريدية والشيعة.

والشيعة تنقسم بدورها إلى زيدية وإسماعيلية واثني عشرية، فكيف يمكن توحيد الكلمة مع سيادة هذه المناهج الكلامية عليهم؟!

والحقّ انّ هذه المذاهب تتراءى في النظر البدئي سداً منيعاً بوجه الوحدة، ولكن بالنظر إلى أواصر الوحدة تبدو وكأنّها موانع واهية لا تصد المسلمين عن التمسك بأهداب الوحدة على كافة الأصعدة.

أمّا المناهج الكلامية فجوهر الاختلاف فيها يرجع إلى مسائل كلامية لاعقائدية، مثلاً انّ الأشاعرة والمعتزلة يختلفون في المسائل التالية:

١. هل صفاته عين ذاته أو زائدة عليها؟

٢. هل القرآن الكريم قديم أو حادث؟

٣. هل أفعال العباد مخلوقة لله أو للعباد؟

٤. هل يمكن رؤية الله في الآخرة أو هي ممتنعة؟

إلى غير ذلك من أمثال هذه المسائل، ومع تثمين جهود الطائفتين فالاختلاف فيها اختلاف في مسائل عقلية لا يناط بها الإسلام ولا الكفر فالمطلوب من المسلم اعتقاده بكونه سبحانه عالماً وقادراً، وأمّا كيفية العلم والقدرة بالزيادة أو العينية فليس من صميم الإسلام، فلكلّ مجتهد دليله ومذهبه، كذلك القرآن هو معجزة النبي ﷺ وكتابه سبحانه فليس الحدوث والقدم من صميم العقيدة، وقس على ذلك ما تلوناه عليك من المسائل، حتى أنّ مسألة رؤية الله في الآخرة وإن أصبحت عقيدة ضرورية لأجل روايات وردت في صحيح البخاري، ولكنّها من ضروريات المذهب الكلامي الخاص لا من ضروريات الإسلام، فهناك فرق بين ضروريات المذهب الأشعري وضروريات الإسلام، فكلّ أشعري يقول بالرؤية تبعاً لإمامه وهو تبعاً للدليل الذي قام عنده ولا يقول

به كلّ مسلم.

وقس على ذلك سائر الوجوه المفرقة التي ترجع كلّها إلى فروق كلامية.

وأمّا المناهج الفقهية فالمشهور هي المذاهب الأربعة مضافاً إلى الزيدية والجعفرية فهذه المذاهب الستة مذاهب فقهية، والاختلاف يرجع إلى الاختلاف في فهم الآية والرواية، فلو اختلفوا فإنّما يختلفون في فهم الكتاب والسنّة ، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على اهتمامهم بهما وإمعانهم في فهمهما والاختلاف أمر طبيعي خصوصاً بعد مضي ١٤ قرناً من عصر الإسلام.

ولكن اختلافهم في المناهج الفقهية لايمس بصميم الفقه الإسلامي، فهل هناك من يرى صلاة الفجر ثلاث ركعات أو يرى صلاة الظهر والعصر غير أربع ركعات؟!

وليس الاختلاف وليد اليوم بل بدأ الاختلاف بعد رحيل رسول الله ﷺ في أبسط المسائل الفقهية كعدد التكبيرات على الميت إلى أعمقها، فالاختلاف الموروث إنّما هو اختلاف في فهم النصوص لا في رفض النصوص وردّها.

ولاشكّ انّ الشيعة ترى جواز الجمع بين الصلاتين مع القول بأنّ التفريق هو الأفضل، والسنّة تخص جواز الجمع بالسفر ومواقف خاصة، ولكلّ دليله وقد ورد في الصحاح والمسانيد قرابة عشرين

رواية بأنّ رسول الله ﷺ جمع بين الصلاتين من غير سفر ولا مطر ولا مرض ليوسّع بذلك الأمر على الأُمّة.

وقس على ذلك سائر الاختلافات الفقهية حتى الاختلاف في متعة النكاح، فذهب جمهور السنّة إلى النسخ والشيعة إلى بقاء الجواز، فالاختلاف فيها كالاختلاف في سائر المسائل الناشئة من الاختلاف في النسخ وعدمه.

٢. الاختلافات القومية

يتشكّل المسلمون من قوميات متعددة من عرب وعجم وترك وبربر إلى غير ذلك من الشعوب والقبائل ولكن هذا الاختلاف، اختلاف تكويني لا يصلح لأن يكون مانعاً عن وحدة الكلمة، وقد عالج سبحانه هذا النوع من الاختلاف وقال: ﴿**يَا أَيُّهَا النّاسُ إنّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقاكُمْ**﴾ .

فالاختلاف في اللون واللسان والدم والوطن وإن كانت عوامل توحد طائفة كبيرة، لكنّها عوامل عرضيّة لا تمت إلى جوهر الإنسان بصلة، وأمّا الإيمان بالأُصول الثلاثة فهو عامل باطني ذاتي أقوى من جميع العناصر المتقدمة.

فالمسلم الشرقي إذا تعارف مع المسلم الغربي مع ما بينهما من

الهوة السحيقة يتآخيان، لما بينهما من وحدة المبدأ والمعاد والقيادة والهدف وأمّا الإخوان من أمّ وأب واحد إذا كان أحدهما إلهياً والآخر مادياً يتناكران.

أظن انّ هذين المانعين ليسا من موانع الوحدة، وقد عالجهما الإسلام بشكل واضح، وإنّما هناك عوامل واقعية تعرقل مسير الوحدة وهي بحاجة إلى الدارسة والوقوف عليها بنحو مسهب.

٣.الجهل بمعتقدات الطوائف

الحقيقة انّ جهل كلّ طائفة بمعتقدات الطائفة الأُخرى يعد من أهمّ الموانع التى تشكل حاجزاً منيعاً عن الوحدة، وهذا ليس بالأمر السهل. وإليك هذا المثال:

كان لي صديق في مكة المكرمة كنت أزوره عند تشرّفي إلى زيارة بيت الله الحرام وكان يزاول حرفة بيع الأقمشة، سألني يوماً ما تقولون أنتم معاشر الشيعة في آخر الصلاة بعد رفع الأيدي إلى الأُذن؟ قلت: يقولون: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، فعاد يعتذر لي بأنّي كنت أعتقد انّكم تقولون: خان الأمين، خان الأمين، خان الأمين.

فإذا كان هذا مبلغ علم المسلم بعقيدة أخيه الشيعي في قبة الإسلام، فما ظنك بمسلم يسود بينهما آلاف الفراسخ؟!

وقد سألني عالم مكي من قضـاة مكة المكرمة ومدرّسي الحرم عند ما نـزلت بيته ضيفاً مع أصدقائي، فقـال: شيخنا السبحاني!! هل للشيعة تأليـف؟! قلت: سبحان الله ليست الشيعـة طائفة لا تاريخ لها ولا جذور وإنّما هي طائفـة إسلامية منذ عصر النبي إلى يـومنا هـذا قد شـاركـوا المسلمين في تأسيس الحضـارة الإسلاميـة العريقة.

ونأتي بمثال ثـالث: انّ الشيعة الإمـامية اقتداءً بـالنبي وأئمّة أهل البيت لا يسجدون في الصلاة إلاّ على الأرض أو ما ينبت منها بشرط أن لا يكون مأكولاً ولا ملبـوساً ، فبما انّ السجود على الأرض في المنازل وحتى المسـاجد المفروشة غير ميسّرة يتخذون أقـراصاً من التربة يسجدون عليها، فعند ذلك نرى أنّ بعض إخواننا من السنّة يرمون الشيعة با لسجود للحجر والتراب كسجود عبّاد الوثن له مع أنّهم لا يفـرّقـون بين المسجـود عليـه والمسجـود لـه، فـالتراب هـو المسجود عليه. وأمّا المسجود له هو الله سبحانه.

وعلى ذلك فلو وقـف فقهاء المذاهب على ما لـدى الطوائف الأُخرى من الفقه والأُصول والاستدلال والاجتهاد لما عاب أحدهم الآخـر وإنّما الخلاف في كيفيـة الاستـدلال وحقيقـة البرهـان لا في الأخذ بـالبرهان ولو أردنا أن نمثـل في المقام لطال بنا الكـلام وطال مقامنا مع الحضّار.

وهناك نكتة أود أن أذكرها هـي انّ أكثر من كتب عن الشيعة، فـإنّما أخـذ عن كتّـاب بعـداء عـن الشيعـة كـابن خلـدون أو مـن المستشرقين الحاقدين على الإسلام عامـة وعلى التشيع خاصة، أمثال جولد تسيهر.

فعلى من يريد نسبة شيءإلى أي طائفـة من الطوائف الرجوع إلى مصادرهم الأصلية المؤلفة من قبل علمائهم.

٤ .الجهل بالمصطلحات

إنّ لكلّ طائفة مصطلحات خاصة في العقيدة والشريعة يجب أن تؤخـذ مفاهيمها من كتبهم وليس لنـا تفسيره من جانبنا ولنـذكر هناك مثالين.

ألف . البداء

البداء عقيدة إسلامية دلّ الكتاب والسنّة عليها، وهي لاتعني إلاّ تغيّر مصير الإنسان بالأعمال الصالحة والطالحة، فالإنسان بما أنّه مسؤول عن أعماله بيـده تغيير مصيره، فيجعل نفسه من السعداء أو من الأشقياء، وهـذا أمر دلّ عليه الكتـاب والسنّة. وهذا هـو البداء عند الشيعة، فقوم يونس بـدلّوا مصيرهـم السّيّئ إلى الحسن بالأعمال الصالحة والإنابة. قـال سبحانه:﴿فَلَوْلاَ كَـانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَـتْ فَنَفَعَها

﴿إيمانُها إلاّ قَوْمَ يُونُسَ لَمّا آمَنُوا كَشَفْنا عَنْهُمْ عَذابَ الخِزيِ فِي الحَياةِ الدُّنْيا وَمَتَّعْناهُمْ إلى حِين﴾.[١]

فيقال عندئذ: «بدا لله في قوم يونس» أي ظهر لنا ما خفي علينا، لاظهر له- نعوذ بالله- بعد ما خفي عليه، وهذا النوع من الاستعمال المجازي شائع على لسان النبي ﷺ حتى في صحيح البخاري في قضية الأبرص والأعمى والأقرع.[٢]

لكن يفسر عند من لا يعرف عقائد الشيعة بتغير إرادة الله سبحانه وتعالى وظهور الشيء له بعد خفائه ومن المعلوم انّ الأُولى عقيدة إسلامية والثانية عقيدة إلحادية لا يتفوّه بها أحد من المسلمين.

ب. التقية

التقية من المفاهيم الإسلامية وهي سلاح الضعيف أمام القوي، فإذا خاف المسلم على ماله وعرضه ودمه من أيّ إنسان سواء أكان كافراً أو مسلماً وأراد شخص قوي سلب حرياته فلا محيص له إلاّ كتمان عقيدته، وقد أمر به سبحانه وقال: ﴿إلاّ مَنْ

---

١. يونس: ٩٨.

٢. صحيح البخاري: ٤ / ١٧١ حيث جاء فيه: بدا لله أن يبتليهم فبعث إليهم ملكاً....

أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمان﴾ [١]وقد نزلت في حقّ عمّار بن ياسرحيث أظهر الكفر وأخفى الايمان وجاء إلى النبي ﷺ باكياً فقال ﷺ: " لا شيءعليك " فنزلت الآية، ولكنّ التقية تفسر عند بعض المخالفين بالنفاق مع أنّ بين التقية والنفاق بوناً شاسعاً، فالتقية إظهار الكفر وإبطان الإيمان، والنفاق على العكس هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر.

هذه بعض الموانع الماثلة أمام وحدة المسلمين، وهناك عوامل أُخرى لامجال للبحث فيها على هذه العجالة.

نسأله سبحانه أن يرزق المسلمين توحيد الكلمة كما رزقهم كلمة التوحيد

شكرني مقدم البرنامج على المحاضرة التي راعيت فيها جميع الجوانب. ثم جاء وزير الأوقاف المحترم وأثنى على محتوى المحاضرة، وشكر الجمهورية الإسلامية لأجل اهتمامها بشؤون المسلمين، وكذا سفير إيران لاجل مساعيه في سبيل إقامة هكذا مجلس و إلقاء هذه المحاضرة.

إلاّ أنّ المجلس لم يختم بهذه المحاضرة، بل طرحت أسئلة بعد

---

١. النحل : ١٠٦.

المحاضرة من قبل الحاضرين وبخاصة العلماء وطلاب الجامعة نستعرض بعضها في ذيل التقرير عن زيارة جامعة آل البيت؛ وذلك لاجل اتّحاد ماهية الأسئلة والأجوبة في المكانين.

بعد ذلك استرحنا قليلاً، ثم دعينا رسمياً من قبل الجامعة إلى مأدبة الغداء، وقد كانت هناك شخصيات كثيرة منها رئيس الإخوان المسلمين في الأردن؛ وعند مغادرتي المحلّ ودّعت الحضّار جميعاً متوجهاً إلى السفارة.

اللقاء بالدكتور عبد العزيز الخياط

إنّ الدكتور عبد العزيز الخياط عالم أردني ولد في الأردن عام ١٣٤٣ هـ، وقد شغل وزارة الاوقاف لمدة. وله أعمال وتأليفات في الفقه والاقتصاد الإسلامي و...

من أعماله القيمة هي "البنك في الإسلام" و"الزكاة في الفقه الإسلامي" و"تاريخ التشريع الإسلامي"، وقد تعرّفت عليه في مؤتمر انعقد في تركيا عام ١٤١٢هـ كما كان لنا لقاءات في مؤتمر الوحدة الإسلامي الدولي في طهران. وفي رحلتي الأُولى إلى الأردن التقيت به في مؤسسة آل البيت عليهم السلام. فقد كان حاضراً في مأدبة الغداء التي أعدّتها المؤسسة.

لقد كان حاضراً في القاعة عند إلقاء المحاضرة في جامعة

الأردن، وقد كان راغباً في أن يكون لنا لقاء؛ لذا تقرّر أن نلتقي عصراً في السفارة.

لقد شكرني في هذا اللقاء على محاضرتي، وقال: إنّ هذه اللقاءات مفيدة، لذلك نؤكد على تواصلها. ثم أهداني آخر تأليفاته، وأنا بدوري قدمت له بعض آثاري العلميّة.

لم يكن متذمراً من الصلح بين العرب و إسرائيل فحسب، بل كان يقول: إنّهم يهرولون نحو الصلح. وكأنّ في ذلك ضالّتهم.

إنّ كتاب " تاريخ التشريع الإسلامي " من كتبه المفيدة وأنا قد استفدت منه في تدوين مقدّمة طبقات الفقهاء في قسم كتاب " الفقه الإسلامى منابعه وأدواره " . لكن ممّا يؤسف له أنّ طبعته مليئة بالأغلاط. إلى درجة يقول السيد الخياط نفسه: إنّ علينا إعادة طبعه.

إنّ مسألة البنك في الإسلام تحظى بأهمية خاصة من قبل المتفقّهين والمهتمين بالفقه الإسلامي وهي تتابع بجدية خاصة هناك، وقد نشرت مقالات في هذا المجال؛ ومقالة الدكتور الخياط تمتاز عن باقي المقالات بالشمول والعمق.

إنّه رجل سليم النفس ومحب للجمهورية الإسلامية؛ ولديه رغبة خاصة بالصديق العزيز الشيخ واعظ زاده، وقد استقبل الشيخ في أوّل رحلة له للأردن بحفاوة.

أسدل الليل ستاره يوم الاثنين (٤/ ٤/ ١٩٩٨م)واختفت

شمس الأصيل. وترك ضيفنا العزيز السفارة؛ أمّا نحن فأعددنا أنفسنا لاقامة الصلاة و إلقاء محاضرة حول ثورة الإمام الحسين بن علي عليه السلام، وقد كان ديدننا في كل ليلة أن نشرح أحد درر الإمام الحسين عليه السلام؛ وابني علي رضا هو طالب حوزة في السنة الرابعة قد أعانني في رحلتي هذه، وكان يكتب الحديث بخطه الجميل وكان يضعه في محلّ بحيث يراه الجميع ليقرأه ويحفظه. وقد تقرر أن تهدى جائزة في آخر يوم من تواجدنا هناك لافضل حافظ لهذه الأحاديث أتصوّر أنّ موضوع الحديث تلك الليلة هو قول الإمام الحسين عليه السلام:

" الناس عبيد الدنيا والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه ما درّت معايشهم، فإذا محّصوا بالبلاء قلّ الديّانون " .

كان للمجالس الليلية مع مواطنينا الغيورين فائدة كبيرة ولذة جمة. وكان أعضاء السفارة يحضرون هذه المجالس برفقة عوائلهم، وكل ليلة يتبرع أحد الأعضاء بمأدبة العشاء.

الفصل الخامس

مناظرة في جامعة
آل البيت عليهم السلام

كان طلوع الشمس يوم الأربعاء (٦/ ٤/ ١٩٩٨م) متزامناً مع هبوب نسيم الربيع؛ وحسب البرنامج قد تقرر أن يكون لي محاضرتان في جامعتين تقعان خارج عمّان. إحداهما جامعة آل البيت عليهم السلام في مدينة " مفرق " شمالي الأردن ، والأُخرى هي جامعة " جرش " الواقعة في محافظة جرش، وكان المفروض أن تلقى كلا المحاضرتين صباحاً. وموضوع المحاضرة في الجامعة الأُولى هو (الوحدة الإسلامية وخصائص المذهب الشيعي) والموضوع في الجامعة الثانية هو (حقوق المرأة في القرآن).

رغم ما كان يحمل الملك حسين من خصائص، فإنه يفتخر بانتسابه لآل البيت عليهم السلام ، وقد جعل اسم دولته " الأردنية الهاشمية " ،

ويُشار إلى نَسَبِهِ دائماً في وسائل الإعلام وصلوات الجمعة عند تمجيده والثناء عليه، ولأجل ترسيخ هذه القضية في المجتمع الأردني بنى قبل سنوات جامعة في إقليم "مفرق" سمّاها جامعة آل البيت عليهم السلام وهي تَسَعُ لثلاثة آلاف طالب إلى مستوى الماجستير؛ ورئيسها هو "عدنان البخيت"، والأساتذة أكثرهم غير أردنيّين. وتدرّس اللغة الفارسية هناك كلغة ثانية، لكن من المؤسف أنّ تعليم العبرية متقدم جداً الأمر الذي يستدعي دراسة وتحقيقاً!

وصلنا حرم الجامعة بعد الساعة الثامنة بقليل، وكنّا نظن أنّ رئيس الجامعة أو عميد إحدى الكليات سيكون باستقبالنا كما هو المتعارف في الجامعات الأُخرى، إلا أنّ مراسماً فخرية كهذه كانت مفقودة هناك. وقد وصلنا مكتب المعاون بعد أن سألنا عدة مرات، وبعد الاستقبال الجافّ والاستراحة القصيرة هناك، أُرشدنا إلى قاعة صغيرة ضمّت الهيئة العلمية للجامعة فقط. كما أنّهم كانوا يمانعون من دخول طلاب الجامعة في القاعة. هنا التفتُّ إلى أنّ رئيس الجامعة ومعاونه ندما على دعوتي؛ ولذا كانا في مأزق حرج. وخوفاً من تسرّب المطالب إلى خارج الجامعة حالوا دون إقامة المراسم المتعارفة والتحاضر أمام الطلاب. وقد كان الاجتماع برئاسة عميد كلية الشريعة الدكتور السيد قحطان الدوري (وهو عراقي)، كما أنّ أكثر أعضاء المجلس كانوا من السلفيّين المعروفين بخصومتهم مع

المسلمين المتقدمين وبخاصة الشيعة.

لم أُبدي أي تذمّر من المعاملة غير اللائقة، بل شكرت السادة على حضورهم، وأشرت إلى أنّ الطلاب كانوا من الحضّار في جميع الجامعات التي ذهبت إليها، وأنتم هنا لم تتبعوا هذه السنّة وما أجزتم لهم الحضور، لماذا؟

أجاب مدير الاجتماع: إنّ وقت المحاضرة تزامن مع ساعة درس الطلاب، ومنعنا من اشتراكهم في الاجتماع لأجل الذهاب إلى الصفوف واستمرار الدروس. فأجبت مباشرة: إنّ هذا يعني أنّ كلاً من الأساتذة الذين لهم درس يمكنه ترك الاجتماع وتقديم التدريس ساعة على الإصغاء إلى محاضرتي، أمّا البقية ممّن لا درس له فيبقى. وعلى هذا فاجتماعنا يكون مجلس أُنس لا مجلس محاضرة.

وقد ترك البعض المجلس إثر هذا الاقتراح، إلا أنَّ الأكثر بقي في المجلس.

إنَّ الظروف الحاكمة على المجلس ما كانت تسمح بإلقاء محاضرة مدة ساعة كاملة، لذا كنت مرغماً على تلخيص ما ألقيته في محاضرتي في جامعة الأردن؛ فبدأت الحديث بهذه الصورة:

إنّ الاختلافات بين الفرق ليست بالمستوى الذي يجعل من المسلمين أُمّتين أو أُمماً، وذلك لأنّ المسلمين متّحدو الكلمة في العناصر الأساسية المكوّنة للدين الإسلامي.

ثم تحدّثت قليلاً عن عناصر الوحدة الإسلامية وموانعها؛ وانتظرت ما توقعته من أسئلة واعتراضات. وبما أنّا تحدّثنا سابقاً عن عناصر الوحدة وموانعها بالتفصيل فلا نعيد ذلك.

وفي الأثناء طرح أحد الأساتذة ملاحظة على المذهب الشيعي كان قد كتبها من ذي قبل، وهي كالتالي:

إنّا نستحسن الاتحاد الإسلامي، إلا أنّه يمكن مع الطوائف التي تقرّ بأصولنا ومبادئنا، لكنّكم لا تقرّون بها، وذلك للأدلّة التالية:

١ . إنّ الشيعة تكفّر صحابة الرسولﷺ.

٢ . تعتبرون كتاب الله محرّفاً.

٣ . للشيعة قرآن غير هذا الذي في متناول أيدينا وهم يكتمونه.

٤ . لا يعملون بروايات الصحاح والسنن.

٥ . لا نؤمن بصدق كلامكم، وذلك لأجل اعتقادكم بالتقية؛ ونحن نحتمل دائماً أنّ كلامكم صدر عن تقية لمصلحة في ذلك.

إنّ اعتراضات هذا الشخص كان قد كتبها عن كتاب " التصحيح " لموسى الموسوي، وقد كنت أكتب إشكالاته لأجل الإجابة عليها.

طلبت الرخصة من مدير الاجتماع لأجل الدفاع.

التفتّ في البداية إلى الأساتذة جميعهم وقلت لهم: سأجيب على جميع ما طرح من إشكالات، لكن عليكم أنّ تعلموا أنّ الأُستاذ قد اقتبس ملاحظاته من كتاب التصحيح لموسى الموسوي، وصاحب الكتاب إنسان سيّئ الصيت ويعرفه العراقيون خير المعرفة.

وكتابه الذي يعدّ مصدراً للملاحظات الأُستاذ كتاب يفقد القيمة العلمية. وقد كتب هذا الكتاب في أثناء الحرب الإيرانية العراقية للحيلولة دون انتشار العقائد والأفكار الشيعية في العالم، رغم ذلك فإنّي سأُجيب على أسئلته.

١. تكفير الصحابة

مَن يدّعي أن الشيعة تكفّر صحابة الرسول ﷺ وقد كان الصحابة يتجاوز عددهم المائة ألف، ونحن لا نعرف أكثرهم، ومع هذا فكيف يمكن تكفير طائفة كبيرة نجهلها؟! إنّ تكفير طائفة مبدئياً بحاجة إلى ملاك.

ما هو ملاك التكفير؟

أرجو منكم السماح لي بالتوسّع بالحديث.

إنّ الصحابة ينقسمون إلى ثلاث طوائف:

١ . طائفة آمنت بعد البعثة وقبل الهجرة واستشهدوا وهم من

أمثال (ياسر وسمية) والدي عمّار. وهل الشيعة تكفّر هذه الطائفة؟!

٢ . طائفة كانت تحمل لواء الإسلام من الهجرة وحتى وفاة الرسول، وقد قتلوا في هذا السبيل، مثل "حمزة بن عبد المطلب"، و"عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب"، و"جعفر بن أبي طالب"، و"زيد بن حارثة"، و"عبد الله بن رواحة" وجميع من استشهد في بدر وأُحد والأحزاب وخيبر وحنين، وهل تكفّر الشيعة هذه الطائفة رغم أنّها سقت بدمائها شجرة الإسلام؟!

٣ . طائفة رفعت لواء الإسلام بعد وفاة الرسول لتقاتل المشركين والنصارى والمجوس، واستشهدوا غرباء في سبيل هداية الناس. وهل الشيعة تكفّر هذه الطائفة؟!

مبدئياً نقول: إنّ الشيعة لا تكفّر شخصاً آمن بالإسلام والقرآن والنبوة والشريعة أبداً.

فضلاً عن هذا فإنّ بعض الصحابة كانوا من طلائع التشيّع، وشيعة مخلصين لأمير المؤمنين، وكيف تكفّر الشيعة أسلافها؟!

وأذكر هنا بعض من هؤلاء الأسلاف:

١ . عبد الله بن عباس، ٢ . الفضل بن عباس، ٣ . عبيد الله ابن عباس، ٤ . قثم بن عباس، ٥ . عبد الرحمن بن عباس، ٦ . تمام ابن عباس، ٧ . عقيل بن أبي طالب، ٨ . أبو سفيان بن حرث بن

عبد المطلب، ٩. نوفل بن حرث ،١٠ .عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، ١١ . عون بن جعفر، ١٢. محمد بن جعفر ، ١٣ .ربيعة بن حرث بن عبد المطلب، ١٤ .طفيل بن حرث، ١٥ .مغيرة بن نوفل بن حارث، ١٦ .عبد الله بن الحرث بن نوفل، ١٧ .عبد الله بن أبي سفيان بن حرث، ١٨ .عباس بن ربيعة بن حرث، ١٩ . عباس بن عتبة بن أبي لهب، ٢٠ .عبد المطلب بن ربيعة بن الحرث، ٢١ .جعفر ابن أبي سفيان بن حرث.

هؤلاء جميعاً من مشاهير بني هاشم، أمّا الشيعة من غير بني هاشم، فها هنا بعضهم:

٢٢ سلمان المحمدي ، ٢٣ .مقداد بن الأسود الكندي ،٢٤ . أبو ذر الغفاري ، ٢٥ .عمّار بن ياسر ، .٢٦ حذيفة بن اليمان، ٢٧ .خزيمة بن ثابت ، ٢٨ .أبو أيّوب الانصاري خادم الرسول، ٢٩ .أبو هيثم مالك بن تيهان، ٣٠ .أُبي بن كعب ،٣١ .سعد بن عبادة، ٣٢. قيس بن سعد بن عبادة، ٣٣ .عدي بن حاتم، ٣٤ .عبادة بن صامت، ٣٥ .بلال بن رباح الحبشي ، ٣٦ .أبو رافع مولى رسول الله، ، ٣٧ .هاشم بن عتبة، ٣٨ .عثمان بن حنيف، ٣٩.سهل ابن حنيف ، ٤٠ .حكيم بن جبلة العبدي ، ٤١ .خالد بن سعيد بن عاص ، ٤٢ .ابن حصيب الأسلمي ،٤٣ .هند ابن أبي هالة التميمي ٤٤ .جعدة بن هبيرة، ٤٥ .حجر بن عدي الكندي، ٤٦ . عمرو بن

حمق الخزاعي، ٤٧ .جابر بن عبد الله الأنصاري، ٤٨ .محمد بن أبى بكر، ٤٩. أبان بن سعيد بن عاص ، ٥٠ . زيد بن صوحان الزيدي.

كيف يمكن للشيعة أن تكفّر الصحـابة وفيهم عظماء وشيعة لأمير المؤمنين في نفس الوقت؟! كيـف يمكن للشيعة أن تسبّ أو تلعن الصحابة؟!

إن هذا ليس إلاّ افتراء على الشيعة.

فـإن كنـــت لا تـــدري فتلـك مصيبــة

وإن كنـت تـــدري فــالمصيبــة أعظـم

إنّي أعرض عـن حديثى هنـا لأطلب من الأُستـاذ المحترم أن يقدّم لي وثيقة على كلامه، وليأت بكتاب أُلّف من قبل علماء الشيعة صُرّح فيه بكفر الصحابة.

إنّ مرادي من الكتـاب غير الحديث، وذلك لأنّ الحديث لا يكشف عـن عقائد الشيعـة؛ فإنّ له أقسـاماً وأصنـافاً، ومـع غض النظر عن الحديـث أو الحديثين اللّذين هما من أخبـار الآحاد، فإنّ الأحاديث لا تعد وثيقة على آراء الشيعة وأفكارهم.

إنّي لا أرغب في رفـع الستـار عن بعض العيـوب، ولا أُريـد التفوّه بما يجرح شعـور الأساتـذة الكرام، لكنـي أقول: إنّ أصح مـا لـديكم من الكتـب وهو صحيـح البخاري تضمّـن تكفيراً لبعض الصحابة.

كما ورد ارتداد الصحابة بعد وفاة الرسول في صحيح مسلم.

إنّ شأن صحيح مسلم أرفع من شأن الكتب العقائدية عند أهل السنّة؛ لأنّ محقّقي أهل السنّة لا يجيزون المساس بهذا الكتاب كما لا يجيزون تضعيف ولو حديث واحد. مع هذا، نقل الشيخ البخاري أحاديث ارتداد الصحابة في كتاب الفتن في الباب الرابع تحت عنوان (باب ظهور الفتن).

وأنا آتي هنا بحديث واحد كنموذج ومثال لما قلت، وبإمكانكم مراجعة الصحيح للتأكد من صحة كلامي أو سقمه.

يقول سهل بن سعد الساعدي: سمعت الرسول صلى الله عليه وآله يقول: " أنا فرطكم على الحوض من ورد شرب منه ومن شرب منه لم يظمأ بعده أبداً ليرد عليّ أقوام أعرفهم ويعرفونني ثمّ يحال بيني وبينهم " .

يقول أبو حازم: سمعت هذا الحديث عن سهل بن سعد الساعدي في مجلس نعمان بن أبي عيّاش. وقد قال: إنّي سمعته من أبي سعيد الخدري، وقد سمعت أنّه يضيف:

" فأقول: إنّهم منّي ، فيقال: إنّك لا تدري ما بدّلوا بعدك، فأقول: سحقاً لمن بدّل بعدي " .

إنّي جئت بهذا المثال لأجل تنبيه الأُستاذ المحترم، وباعتباري سفير تقريب لا تفريق أرجح أن لا آتي بالنصوص التي تثبت ارتداد

الصحابة إلى ما قبل الإسلام.

فقال أحد الأساتذة: إنّ المراد من هذا الحديث هو ارتداد طائفة من أُمّتي لا الصحابة، وعلى هذا فلا تكون دليلاً على ارتداد الصحابة.

فقلت: إنّ هذا الاحتمال منتف وذلك بدليل عبارته: " أعرفهم ويعرفونني " . وهذه علامة لا تصدق إلاّ على الصحابة.

ومن الأفضل أن ترفعوا اليد عن مبدئكم المعروف (لا يمكن التشكيك في صحة الصحيحين) وذلك للحؤول دون نعت الصحابة بالارتداد، لكن إصراركم على صحة هذين الصحيحين بدرجة حيث لا أتصوّر إمكانية استثنائكم لهذا النوع من الأحاديث.

على أي حال، أنا أنطق عن الشيعة، وأقول: إنّ الشيعة لا تعتقد بارتداد الصحابة، وإذا ما وجدنا رواية في هذا المجال فهي أخبار آحاد ولا تعكس رؤى الشيعة وعقيدتهم في هذا المجال.

عدالة الصحابة

إنّ عدالة الصحابة ونزاهتهم من القضايا التي ينبغي الالتفات إليها هنا.

إنّ أهل السنّة تعتقد أنّ التشرّف برؤية الرسول بحدّ ذاته

سبب لصون الإنسان عن ارتكاب الذنب، أمّا الشيعة فتعتقد أنّ الصحابة كالتابعين وحكمهما واحد في هذا المجال، ولا تلازم بين كون الشخص صحابياً وعدم اقتراف الذنب، ولا تلازم بين الصحابي والعدالة.

وبعبارة أُخرى: إنّ الصحابة كالتابعين يُقسَّمون إلى صنفين عادل وغير عادل.

وكان على المعترض أن يطرح القضية بشكلها الصحيح من دون اتّهام الشيعة؛ فإنّ أصل القضية هي أنّ الشيعة لا تعدّ جميع الصحابة عدولاً لا أنّهم يكفّرون الصحابة، وللشيعة وثائق وأدلّة تثبت بها رؤيتها هذه.

انزعج أحد الأساتذة الذي كان يجلس في نهاية المجلس بسبب طرح المسألتين، ورفع صوته قائلاً: ما هو دليلكم على تصنيف الصحابة إلى قسمين؟ ولماذا لا تعدّون الجميع عدولاً ؟

فأجبته: بما أنّ المجلس علمي، والعالم لا ينزعج من بيان الحقائق، فإنّي أطرح هنا الأدلّة التي تثبت التصنيف سالف الذكر للصحابة:

١. يقول القرآن الكريم:

﴿ ... إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ... ﴾ .[1]

---

١. الحجرات: ٦.

نحن نسأل هنا من هو الفاسق الذي أخبرت عنه الآية والذي كان في عصر الرسول ﷺ ؟ إنّ الآية لها شأن نزول، أي أنّ فاسقاً كان قد أخبر الرسول بنبأ كاذب، فنزلت الآية لأجل الحيلولة دون حصول حوادث مفاجئة وغير متوقعة.

إنّ هذا الفاسق بإجماع المفسرين والمؤرخين هو " وليد بن عقبة " الذي مات بعد وفاة الرسول ﷺ وصحيفة أعماله سوداء؛ وقد شرب الخمر عندما كان والياً على الكوفة أثناء خلافة عثمان، وصلّى بالناس الصبح أربعاً في المسجد كما لوّث محراب المسجد.

خلع خاتمه عمارُ بن ياسر الذي كانت الكتب الرسمية تختم به، من دون أن يعلم الوليد بذلك. وانتقل خبره إلى المدينة... إلى أن أدى به الأمر أن يعزل عن الولاية ويحكم بالجلد ثمانين جلدة.[١]

٢. قال الرسول ﷺ في عمار بن ياسر: " تقتلك الفئة الباغية " . وأنا أسألكم هنا من كان زعيم هذه الفئة الباغية؟ إذ لم يكن إلاّ الصحابي المعروف الذي يكالُ له الاحترام حاليّاً الأمر الذي يؤسف له.

وحينئذ قال أحد الأساتذة باعتداد خاص: (الباغية) لا تعني الظالمة، بل الطالبة للحق، والبغي يأتي كذلك بمعنى البحث في العربية.

---

١. أُسد الغابة: ٥/ ١٩١.

فأجبته هازلاً: إنّ من هوان الدنيا على العرب والعروبة أن يكون التركي الآذري معلّماً للعرب الأقحاح، أما قرأتم قول الله سبحانه:

﴿وَإِنْ طائِفتانِ مِنَ الْمُؤْمِنينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلى الأُخرىٰ فَقاتِلُوا الّتي تَبْغِي حَتّىٰ تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللهِ﴾.[١]

وهل البغي هنا بمعنى طلب الحق؟!

إنّ الرسول ﷺ بهذا الحديث أراد إظهار ظلامة عمّار.

إنّ التاريخ يبيّن مراد الرسول ﷺ. فإنَّ عمّاراً عند بناء مسجد الرسول ﷺ في المدينة، قد تحمّل أعباء البناء أكثر من غيره، ولأجل صدقه والتزامه الخاص بالإسلام، كان البعض يحرضه على العمل أكثر من طاقته.

اشتكى عمار يوماً عند الرسول ﷺ من البعض الذين أجهدوه أكثر من طاقته؛ وقال: يا رسول الله قتلوني، فأجابه رسول الله ﷺ بمقولته المعروفة هنا:

" إنّك لن تموت حتى تقتلك الفئة الباغية الناكبة عن الحق ويكون آخر زادك من الدنيا شربة لبن ".[٢]

وقد جاء في بعض الروايات: " تدعوهم إلى الجنة ويدعونك

---

١. الحجر:٩.

٢. تاريخ الطبري: ٣/ ٩٩؛ الكامل: ٣/ ١٥٧.

إلى النار" .

إنّ هذا الجواب كان دافعاً ومؤذياً في نفس الوقت بحيث إنّ الأُستاذ المذكور ترك المجلس دون أن يستأذن، فقلت له هازلاً: فأين تذهبون؟

تمّ هنا الحديث عن الإشكال الأوّل، نذهب الآن إلى دراسة الإشكال الثاني:

٢. الاتّهام بتحريف القرآن

إنّ القول بالتحريف ونسبة ذلك إلى الشيعة يعدّ من التّهم الظالمة التي اتّهمت بها الشيعة؛ ولها تاريخ عريق؛ ولتوضيحها نقول: إنّ للتحريف معان واستعمالات مختلفة:

١. تفسير كلام الله بغير المراد الواقعي

إنّ حمل كلام الله على غير المراد الواقعي هو من معاني التحريف. والتحريف بهذا المعنى لا يمكن لأحد نفيه لأنّ زعماء المذاهب العديدة ومؤسسيها يأتون بالآيات القرآنية كأدلّة وبراهين على ما يذهبون إليه. مع أنّ واحداً من هذه التفاسير صحيح والباقي جميعه تحريف للقرآن أو تفسير بالرأي، الأمر الذي نهى عنه رسول الله ﷺ.

إنّ الفرقة الباطنية مثلاً تقول: إنّ المراد من الزكاة في القرآن

هو تزكية النفس، والمراد من الصلاة هـو الرسول الناطق الذي ينهى النـاس عن الفحشـاء والمنكـر: ﴿إِنَّ الصَّـلاةَ تَنْهى عَـنِ الْفَحْشـاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾[1]. فقد حرّفوا بتأويلهم الفاسد كلام الله عن مواضعه .

٢ . الزيادة والنقصان في الحروف والحركات

إنّ الزيـادة والنقصان في الحروف والحركـات هي من معـاني التحـريـف، فـالآيـة التـاليـة مثـلاً: ﴿ ...وَلا تَقْـرَبُـوهُـنَّ حَتّـىٰ يَطْهُرْنَ ... ﴾.[2] تقرأ بتشديد الطاء ومن دونه. فإذا قلنا إنّ القراءات أُثرت جميعها عن النبى بشكـل متواتر، فإنّ مقولـة الاختلاف هنا لا تكون مـن باب التحريـف؛ أمّا إذا قلنا بما قـاله أئمتنـا: " إنّ القرآن واحد نزل من عند واحـد، ولكن الاختلاف يجيء من قبل الرواة "[3] فإنّ القرآن على هذا محفوظ في ضمن القراءات وواحدة منها صحيح قطعاً وتعبّر عن القراءة الصحيحة والواقعية للقرآن؛ ونحن نعتقد أنّ قراءة عاصم برواية حفص هي القراءة الواقعية للقرآن.

١.المواقف : ٨ / ٣٩٠.

٢.البقرة : ٢٢٢.

٣.الكافي : ٢ / ٦٣٠ ح ١٢.

٣ . زيادة كلمة أو نقصانها

إنّ التحريف قد يستخدم في موارد إضافة أو نقصان كلمة أو كلمات أو تبديل كلمة مكان أُخرى مثل إبدال (اسرعوا)مكان (امضوا).[١]

لقد اجتثت جذور هذا النوع من التحريف في عهد الخلفاء، وبخاصة الخليفة الثالث، حيث جمع القرآن بالاستعانة بالحفّاظ وكتّاب الوحي، ورغم أن القرآن كان مجموعاً في عهد الرسول، إلا أنّ الجمع بهذا الشكل في عهد الخليفة الثالث كان بدافع الحيلولة دون المساس بالقرآن وتحريفه بالزيادة والنقصان.

وقد نفى هذا النوع من التحريف المرحوم المحقّق " أبو عبد الله الزنجاني " في كتابه القيّم " تاريخ القرآن " الذي قدّم له " أحمد أمين " وطبع في مصر.

٤ . زيادة الآيات والسور

والمعنى الآخر للتحريف هو زيادة آية أو سورة ولازم وقوع التحريف بهذا المعنى هو نفي إعجاز القرآن، لأنّ التحريف بهذا المعنى يعني قدرة البشر على إتيانه بنص يماثل القرآن الأمر الذي

---

١ . الاية الكريمة : ﴿... وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ الحجر : ٦٥.

ينفيه الله في آيات عديدة منها الآية التالية:

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمّا نَزَّلنا عَلىٰ عَبْدِنا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَٱدْعُوا شُهَداءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِين﴾.[1]

٥ . نقصان آية أو سورة من القرآن

اتّضح حتى الآن حكم أربعة أنواع من التحريف نفياً أو إثباتاً. والذي يعنيه الأُستاذ المعترض هو النوع الخامس من التحريف. وهو نقصان آية أو سورة من القرآن. وهذا النوع من التحريف باطل عند علماء الامامية ولا دليل ولا برهان سليم يثبت صحة هذا الادّعاء.

أوّلاً : يقول الله في سورة الحجر الآية ٩: **﴿إِنّا نَحْنُ نَزَّلْنا الذِّكْرَ وَإِنّا لَهُ لَحافِظُون﴾** ، والضمير في **﴿له﴾** يرجع إلى الذكر الذي يراد منه القرآن هنا.

وينفي الله في سورة فصلت الآية ٢٤ إتيانه الباطل من أي نوع كان: **﴿لاَ يَأْتِيهِ الباطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكيم حَميد﴾** ونقصان شيء من القرآن مصداق للباطل؛ وفي الحقيقة إنّ التنقيص إبطال لجزء من القرآن.

إضافة إلى هذا فإنّ وجود الحفّاظ واهتمام المسلمين بهذا

---

١ .البقرة : ٢٣.

الكتاب يجعل التلاعب به أمراً مستحيلاً؛ ويفتضح كل من راودته هذه الفكرة.

كما أنّ علماء الشيعة منذ القرن الثالث فما بعد صرّحوا في كتبهم بعدم تحريف القرآن وأنه مصون من أي تحريف؛ وها هنا كلمات بعض من هؤلاء العلماء مع عناوين كتبهم.

١. الشيخ الأعظم الفضل بن شاذان (المتوفّى ٢٦٠هـ) في كتاب (الإيضاح ص٢١٧ـ٢١٩).

٢. الشيخ الصدوق (المتوفّى ٣٨١هـ) في كتاب (الاعتقادات ص٩٣).

٣. أُستاذ الشيعة الشيخ المفيد (المتوفّى ٤١٣ هـ) في كتاب (أوائل المقالات ص٥٣)وكذلك في (مجموعة الرسائل في أجوبة المسائل السروية ص ٢٦٦).

٤ .الشريف السيد المرتضى (المتوفّى٤٣٦ هـ) ينقل عنه الطبرسي في (مجمع البيان ج ١ ص١٠).

٥. الشيخ الطوسي(المتوفّى ٤٦٠ هـ) في كتاب (التبيان ج ١ ص ٢).

إنّ هذه الشخصيات وأمثالها إلى يومنا هذا صرّحت بعدم تحريف القرآن؛ ونقل كلماتهم جميعاً إطالة لا داعي لها. والشيء الوحيد الذي يبقى عالقاً هنا هو روايات التحريف الموجودة في

التفاسير وكتب الحديث، وفي هذا المجال نذكّر هنابالأُمور التالية:

١. إنّ وجود رواية أو روايات على التحريف لا يكشف عن عقائدنا، حتى لو كانت هذه الروايات في كتاب جليل مثل (الكافي) ؛ وذلك لأنّ "الكافي " عندنا ليس بمثابة صحيح البخاري عندكم، فإنا نخدش بعضاً ما في روايات هذا الكتاب لضعفها؛ ولا نعدّها تعبّر عن رؤية الشيعة بل وحتى عن رؤية مؤلف هذا الكتاب.

٢. إذا ما وجدنا بعض روايات التحريف المتناثرة في كتب المتأخرين فهى مقتبسة من كتاب «القراءات» لأحمد بن محمد السياري (٢٨٦هـ) وهو من كتّاب آل طاهر، ويضعّفه جميع الرجاليين. ويكفي فيه أنّه من المغالين الخارجين عن دائرة الإسلام.

٣. إذا كتب شيعي كتاباً يحمل عنوان " فصل الخطاب " تحدّث فيه عن تحريف القرآن، فهو يكشف عن رؤية المؤلّف، وقد كتب علماء الشيعة منذ نشره ردوداً كثيرة عليه، وقد طبعت أهم هذه الردود.

٤ . بدل التأكيد على هذا الكتاب(القراءات)، المهم هو أن ندقق في الوثائق والأدلّة. فإن الروايات كما قلنا مقتبسة من الكتاب المذكور والمؤلّف ككتابه لا قيمة له.

٥ . إنّ الجزء الأكبر من هـذا الكتـاب يضـمّ الاختـلاف في القراءات وهذا الاختلاف لا يعني التحريف بمعناه الخامس.

٦ . إذا كـان وجـود روايات التحـريف دليلاً على الاعتقـاد بالتحـريف، فإنّ هنـاك روايات تكشـف عن التحريـف في أصحّ كتاب عنـدكم أي البخاري؛ حيث ينقـل عن عمر بن الخطـاب ما يلي:

" لولا أن يقول الناس إنّ عمـر زاد في كتاب الله، لكتبت آية الرجم بيدي " .[١]

وقـد جاء " جـلال الـدين السيـوطي " بقسـم من روايـات التحريف في كتابه " الإتقان " .[٢]

ينقل " القرطبـي " عن عائشة في تفسيره " جـامع الأحكام " في ذيل سورة الأحـزاب أنّ سورة الأحزاب في عهد الرسـول كانت مائتي آيـة؛ إلا أنّ عثمان عندما جمع القرآن لم يعثـر على آياتها جميعاً إلاّ ذلك المقدار المدوّن في القرآن الحالي.

وعلى هـذا، فـإذا كـان نقل روايـات التحـريـف دليـلاً على التحريـف وعلى الاعتقاد به، فـإنّ نقل كتبكم لهذه الروايـات دليل على ذلك. أمّـا إذا كـان نقـل روايات التحـريـف ليس دليـلاً على

---

١ . صحيح البخاري : باب الشهادة تكون عند الحاكم ص ٦٩.

٢ . الاتقان : ٢ / ٣٠.

التحريف والاعتقاد به كما هو الواقع فإنّ الاشكال لم يرد على الطرفين. والمهم هنا أن ننظر إلى الطرفين بنظرة واحدة.

لقد كتب أحد علماء مصر عام ١٣٤٥ هـ كتاباً يحمل عنوان " الفرقان في تحريف القرآن " ولدي نسخة منه، وقد صادره الأزهر آنذاك ومنع من نشره، رغم ذلك هرّبت بعض نسخه إلى خارج مصر.

لقد كتبت رسالة في نفي التحريف عن القرآن مطبوعة ضمن كتاب " الفقه ومنابعه وأدواره " فليراجعها من أحب.

إنّ هذه الإيضاحات سلبت منهم القدرة على الدفاع والإجابة؛ ورغم طلبي المتكرر للإتيان بصحيح البخاري وتفسير القرطبي لأُبيّن لهم محالّ هذه الروايات إلاّ أنّه لم يفعل ذلك أحد منهم.

آنذاك قلت لهم: إنّ الفرصة آخذة بالانتهاء ولي موعد في جامعة " جرش " ، رغم ذلك أُجيبُ عن الاعتراض الثالث والرابع باقتضاب.

٣ . الإعراض عن روايات الصحيحين

من نقاط ضعف الشيعة أنّهم لا يعملون بالروايات الواردة في الصحيحين ويكتفون بما ورد عن الأئمة من روايات.

الجواب: قبل الإجابة عن هذا السؤال أودّ إعلامكم بأنّ بعض

المؤسسات العلمية في الجمهورية الإسلامية أقدم على جمع الروايات التي يشترك الفريقان في نقلها في كتبهم ويعدّ هذا العمل خطوة نحو التقريب بين المذاهب.

وفي الإجابة على هذا الاعتراض نورد الأدلّة التالية:

أوّلاً : متى أصبح الرجوع إلى الصحاح والسنن شرطاً للإسلام والإيمان بحيث أنّ الذي لم يرجع إليها لا يكون مسلماً أو مؤمناً؟ إن هذه الكتب جميعها كُتبت في أواسط القرن الثالث من الهجرة؛ والمسلمون قبل ذلك كانوا يعملون بالكتاب والسنّة دون المراجعة إليها ولا يشعرون بنقص من جرّاء عدم تدوينها. وهذا شاهد على أنّ المقياس هنا هو الحصول على حديث الرسول وكلماته، وإذا ما حصل شخص على هذه الأحاديث من غير هذه الوسائط (الصحاح والسنن) فإنّه قد بلغ الهدف من دون إشكال.

ونحن نمتلك أضعاف ما في الصحاح، جاءت كلّها عن طريق أهل البيت عليهم السلام وبهذا فنحن قد بلغنا الغاية القصوى.

ثانياً : أنّ الحقيقة هو عكس ما نسب إلينا، نحن نرجع إلى كتب أحاديث أهل السنّة، وتشكّل بعض من تلك الأحاديث محوراً ومبنى لكثير من قواعدنا وأحكامنا الفقهية، كما هو الحال بالنسبة للحديث التالي: " على اليد ما أخذت حتى تؤدّي " وعشرات من الأحاديث الأُخرى نجدها في كتبنا الفقهية الموثّقة.

بالطبع أنّ هـذا لا يعني العمل بجميع مـا ورد في الصحاح؛ بل نحـن نعمل بما ورد في الصحاح بعـد التأكـد من صحة سنـده، وصدوره من الرسول الأكرم ﷺ.

بما أنّـا تطـرقنـا إلى الصحـاح والسنـن، فإنّي اقترح التنقيـح للصحاح الموجودة بين أيدينا.

لأنّ الـوسائل الإعـلاميـة هي التـي رفعت مكـانة الصحـاح والسنن وجعلتهـا في منأى عن أن تخضـع للنقد والنقـاش فقلّما تجد من يجرأ على الخدش فيها أو نقدها، مـع أنّها كباقي الكتب الحديثية بحاجة ماسة إلى تنقيح شديد، وذلك لأنّها تضمّ روايات لا تنسجم مع العقـل والنقل ولا يمكن التصـديق بها، وإليك نمـوذجـان من ذلك:

١ . ينقل البخـاري في كتاب الأنبياء بـاب وفاة مـوسى عليه السلام (ج ٤ ص١٠٥)نقلاً عن أبي هريرة الرواية التالية:

" أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام فلمّا جاءه صكّه ففقأ عينه، فرجع إلى ربـه، فقال: أرسلتني إلى عبـد لا يريد الموت. فـردَّ الله عز وجل عليه عينه وقال:... "

إنّ البخاري ينقـل هذا الحديث في مواقـع عديدة ونحـن هنا اكتفينا بنقـل قسم من هذا الحديـث. ويا تـرى هل يصدّق معـاملة النبي للملك بهذا الشكل، وهل هكذا معاملة تعدّ صحيحة؟!

وهل سكوت الملك أمام موسى عليه السلام يعدّ صحيحاً؟!

إنّ التأخير في القبض ورجوع ملك الموت لله يتنافي مع السنة الإلهية المحتومة التي تشير إليها الآية التالية: ﴿فَإِذا جاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ ساعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾ .[1]

إنّ هذا التساؤل وتساؤلات أُخرى ترد على ذيل الحديث لم نأت بها هنا، تكشف عن أنّ الحديث مزوّر ولا أساس له من الصحة.

٢. ينقل مسلم في صحيحه في باب وجوب امتثال ما قاله شرعاً (ج ٧ ص٩٥) عن طلحة انّه قال : مررت مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوم على رؤوس النخل، فقال : ما يصنع هؤلاء؟ فقالوا: يلقحونه، يجعلون الذكر في الأُنثى فيتلقّح .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ما أظن يغني ذلك شيئاً، قال: فأخبروا بذلك فتركوه، فأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بذلك، فقال :إن كان ينفعهم ذلك فليصنعوه، فإنّي إنّما ظننت ظنّاً فلا تؤاخذوني بالظن، ولكن إذا حدّثتكم عن الله شيئاً فخذوا به فانّي لن أُكذب على الله عزّ وجلّ .

يا ترى هل يمكن عدّ هذا الحديث صحيحاً؟!

كيف عدَّ الرسول التلقيح لغواً وهو ابن الحجاز وقد تربّى

---

١ . الأعراف : ٣٤.

هناك وسافر عدة مرات إلى الطائف والشام وحمل معه تجارب السفر إلى هناك؟!

إذا لم يكن الرسول الأكرم ﷺ ابناً لذلك البلد لأمكن نعته بعدم العلم (مع غض النظر عن مقامه العلمي). لكنّه ابن الحجاز وينبغي أن يكون عالماً بهذه الحقيقة وبهذه السنّة الربانية.

مع الأخذ بنظر الاعتبار هاتين الروايتين، فإن كتب الحديث جميعها قابلة للنقد، ولا فرق في ذلك بين صحيح مسلم أو صحيح البخاري.

٤ التقية أصل إسلامي

خلاصة الكلام عن التقية هو: إنّ التقية أصل إسلامي ويؤيد ذلك العقل والنقل. إنّ العقل يقول: "إذا أدّى العمل أو إظهار العمل بالحكم الإلهي إلى ضرر أشد؛ فينبغي ترك المهم لأجل حفظ الأهم" .

إنّ المخالف قد يكون كافراً أو سلطاناً جائراً، رغم أنّه يحمل الإسلام كعنوان لحكمه إلاّ أنّه لا يطيق الإصغاء إلى القول الحق. أو لا أقل إلى قول الآخرين حتى يقف على دليل عقيدتهم.

على كل حال؛ فإنّ العقل هنا يأمر بالكتمان أو الغض عن الحكم الشرعي؛ إلاّ أن يكون ضرر التقية أشد من الضرر الناشئ من

جرّاء إظهـار الحق أو العمل به؛ بأن يكون الـدين إثر ذلك عـرضة للخطر.

يقول المفسرون في تفسير الآية ١٠٦من سورة النحل:﴿**إِلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمان** ... ﴾ : إنّ الآية تحكي قصـة جماعة من المسلمين هم يـاسر وسميـة وابنهما عمّار، حيث تعرّضـوا للتعـذيب الشديد من قبل المشركين. استشهد إثر ذلك سمية وياسر، لما أبدوه من المقـاومـة الشـديـدة، أمّا الأخير فقـد خضـع ظاهـراً لطلبـات المشركين في الارتـداد عن دينه، إلاّ أنّ قلبـه كـان مع الله والرسـول ومفعماً بـالإيمان... فجاء بعـد ذلك للرسـول وحكى لـه ما جـرى، فامتدحه الرسول وأمره باتّباع نفس الطريقة إذا ما تورّط تارة أُخرى.

ويقـول المفسرون كـذلك في تفسيرهـم الآيـة ٢٨من سـورة آل عمران: ﴿**لاَ يَتَّخِذَ الْمُؤْمِنُونَ الكافِرينَ أَولياءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيءٍ إِلاّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقاة** ... ﴾.

إنّ الآية تتعرض لقضية التقية.

وعلى هذا فـالتقية ليست من اختصـاصات الشيعة، بـل هو أصل إذا دققنا فيه متـأصّل في الآيات القرآنية، وشأنـه شأن باقي الأحكام المنعوتـة بأحد الأحكام الخمسة، ففي مـوارد تكون واجبة، وموارد أُخرى تكون محرمة أو مستحبة أو مكروهة أو مباحة.

إن ما يثير الأعزة هو أنّهم لا يميزون بين التقية وبين ما ألفناه

عن المنظمات والتجمعات السرية للملاحدة والفرق الباطنية. فإنّهم يحملون صورة عن الشيعة وكأنّها عبارة عن منظمة سرية تخفي عقائدها وتسعى إلى إسقاط الحكومات.

إنّ التقية عند الشيعة هي كتقية مؤمن آل فرعون الذي حكى القرآن قصته في الآيتين التاليتين:

﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَونَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جاءَكُمْ بِالبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذّاب ... * فَوَقاهُ اللهُ سَيِّئاتِ ما مَكَرُوا وَحاقَ بِآلِ فِرْعَونَ سُوءُ الْعَذاب﴾.[١]

إنّ هذه الآيات شواهدنا على تشريع التقية، أي كتمان الإيمان وإظهار الكفر. أمّا في البيئات الإسلامية، فإذا كان إظهار الحق سبباً لإيجاد متاعب ومشاكل. فقد أحلّ الإمام الشافعي التقية، قائلاً : إنّ الحالة بين المسلمين إذا شاكلت الحالة بين المسلمين والكافرين حلت التقية محاماة عن النفس [مفاتيح الغيب للرازي : ٢ / ١٣].

ولأجل الاطّلاع على وثائق هذا الكلام يمكنكم الرجوع إلى المصادر التالية:

---

١. غافر:٢٨و ٤٥.

مفـاتيح الغيب، تفسير سـورة آل عمران الآيـة ٢٨؛ محاسن التأويل لـجمال الـدين القاسمي ج٤ ص ٨٢؛تفسير المراغي ج٣ ص ١٣٦ في تفسير الآية ١٠٦ من سورة النحل.

يتضح من خلال ذلك النقاط التالية:

١. إنّ التقية مسـألة شخصية وليسـت نوعية، فـإذا ما ابتلى شخص بسلب حرياته المعقولة، فما عليه إلاّ العمل وفق مقتضيات ذلك المكان.

٢ . إنّ التقية معلولة مصادرة الحريات.

وعلى هذا، فـأنّي لم استخدم اسلـوب التقية هنـا، لأنّكم أيّها الأعـزّاء دعـوتموني إلى هذا المركـز العلمى لأعبّر عـن رؤى مـذهبي ولأقـرّب بيننـا وبينكم، وأنـا دخلـت الأردن بتأشيرة رسميـة، وكما علمنا أنّ التقيـة تنشأ عن الخوف، وأنـا هنا لا أخـاف أي شيء ولا أخفي من عقيدتـي شيئاً، والتأشيرة الرسمية تعني تكفّـل الحكومة بالحفاظ عليّ وعلى أموالي.

بعدئذ قمت مسترخصاً مودعاً وقاصداً إقليم " جرش " .

واجهنا سيـارة الدكتور عدنـان البخيت مدير الجامعـة عند الخروج، لكن بما أنّا كنا في حال سير، لم يحصل لقاء بيننا.

وعند الرجوع إلى قم أردت في البداية أن أبعث برسالة عتاب

إلى مدير الجامعة لأُعرب فيها عن استيائي من معاملة القائمين بهذا المركز العلمي؛ إلاّ أنّي تأنّيت ورأيت المصلحة في التساهل والتسامح.

وبعد ذلك سمعت أنّ ردود الفعل على تصرفاتهم لم تكن جيدة، وقد طالب الأساتذة الذين لم يحضروا المجلس بالشريط المسجّل فيه المحاضرة، وقد كانوا يتبادلون الشريط يداً بيد.

الفصل السادس

المحاضرة في جامعة جرش

البرنامج الثاني ليوم الأربعاء ٦/ ٤/ ١٩٩٨م كان عبارة عن محاضرة في جامعة جرش حول حقوق المرأة في الإسلام. ويذكر هنا أنّ الجامعة تأسست عام ١٩٩٣م، وتضم خمس كليات و١٣٥ عضواً علمياً؛ ولمسؤولي هذه الجامعة علاقات حسنة مع السفارة الإيرانية والجامعة الإسلامية الحرة في إيران.

رئيس هذه الجامعة هو الدكتـور " خالد العمري "، وقد قام باستقبـالي بحفاوة عنـد دخولي الجامعـة؛ أمّا بعـد المحاضرة فـرتّب مجلسـاً للتعارف حضره عمـداء الكليات والفـروع الموجودة، وكـذا الأساتذة. وبهذا ارتفعت عني المتاعـب التي تجرّعتها من جرّاء سوء معاملة مسؤولي جامعة آل البيت.

دخلت قـاعة الاجتماع قبل الظهـر بدقـائق، وقد قـام حينئذ مقدّم البرنـامج بتعـريف المحاضرة؛ وكـان موضـوع المحاضرة هـو (حقـوق المرأة في القرآن) الموضـوع الذي يحظـى باهتمام خـاص في

الدول العربية، وذلك لأنّ معاملـة كبار العرب وشيوخهم مع النساء لا تتناسب وشأن المرأة المسلمة. وأنا بعون الله وألطافه بدأت المحاضرة بعد الحمد لله والثناء عليه، والصلاة والسلام على محمد وآله الطاهرين عليهم السلام وأنصاره وصحبه المنتجبين، وإليك نص المحاضرة:

مكانة المرأة في القرآن

احتلت المرأة مكانة مرموقة في الإسلام واستأثرت باهتمام خاص في الذكر الحكيم، وحيث إنّ الموضوع مترامي الأطراف فلنسلط البحث في هذا المقام على الموضوعات التالية:

الأوّل: النظر في طبيعتها وتكوينها ونفسيتها.

الثاني: النظر إلى حقوقها.

الثالث : الواجبات التى تقع على عاتقها.

كل ذلك على ضوء القرآن الكريم.

هذه هي العناوين الرئيسية في بحثنا هذا وربما تطرح في ثنايا الكلام أُمور أُخرى لمناسبة تقتضيها.

الأوّل : النظر في طبيعتها وتكوينها ونفسيتها

بزغ نور الإسلام في عصر لم يكن لجنس الأُنثى يومذاك أي قيمة تذكر في الجزيرة العربية ولا في سائر الحضارات السائدة آنذاك، وكانت البحوث الفلسفية عند الروم واليونان تدور على أنّ الأُنثى من جنس الحيوان أو من جنس برزخي يتوسط بين الحيوان والإنسان، وكان الرجل يتشاءم إذا أنجبت امرأته أُنثى ويظل وجهه مسوداً متوارياً عن أنظار قومه وكأنّها وصمة عار على جبينه، قال سبحانه: ﴿**وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالأُنْثىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدّاً وَهُوَ كَظِيمٌ* يَتَوارى مِنَ القَوْمِ مِنْ سُوءِ ما بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلى هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرابِ أَلَا ساءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾ .[١]

فقد كان الرجل يقوم بوأد بناته وقتلهن إثر الجهل بكرامة المرأة وفضيلتها ظناً منه أنّه يحسن صنعاً، وهذا هو القرآن الكريم يندد بذلك العمل ويشجبه، ويقول:﴿**وَإِذَا الْمَوءُدَةُ سُئِلَتْ* بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ**﴾ .[٢]

وفي خضم تلك الأفكار الطائشة نجد القرآن الكريم يصف المرأة بأنّها أحد شطري البنية الانسانية، ويقول: ﴿**يَا أَيُّهَا النّاسُ إِنّا**

---

١ .النحل : ٥٨ـ٥٩.

٢ . التكوير : ٨ ـ ٩ .

خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثىٰ وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ﴾[١]. فالأُنثى مثل الذكر يشكّلان أساس المجتمع دون فرق بينهما.

ومن جانب آخر يرى للأُنثى خلقة مستقلة مماثلة لخلقة الذكر دون أن تشتق الأُنثى من الذكر، على خلاف ما عليه سفر التكوين في التوراة من أنّ الأُنثى خلقت من ضلع آدم ، يقول سبحانه شاطباً على تلك الفكرة التي تسربت إلى الكتاب الإلهي (التوراة): **﴿يا أَيُّهَا النّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ واحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْها زَوْجَها وَبَثَّ مِنْهُما رِجالاً كَثيراً وَنِساءً﴾** .[٢]

فالنفس الواحدة هي آدم وزوجها حواء وإليهما ينتهي نسل المجتمع الإنساني، ومعنى قوله : **﴿خَلَقَ مِنْها﴾** أي خلق من جنسها، مثل قولك: الخاتم من فضة، أي من جنس الفضة، فالزوجان متماثلان ولولا التماثل لما استقامت الحياة الإنسانية.

ويستنتج من هذه الآيات انّ كلاً من الذكر والأُنثى إنسان كامل وليس هناك أي نقص في إنسانية الأُنثى، وعلى ضوء ذلك فالتفريق بينهما من تلك الناحية لا يبتنى على أساس صحيح.

لقد شملت العناية الإلهية الإنسان لما جعلته أفضل الخلائق، وسخّرت له الشمس والقمر ولا تختص هذه الكرامة بالذكر فحسب

---

١ . الحجرات : ١٣.

٢ . النساء : ١ .

بل شملت أولاد آدم قاطبة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْناهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ علىٰ كَثيرٍ مِمّنْ خَلَقْنا تَفضِيلاً﴾.(١)

ولأجل هذه الكرامة العامة جعل الذكر والأُنثى في كفة واحدة، فمن آمن منهما وعمل صالحاً فهما سيان أمام الله تبارك وتعالى يجزيهما على حد سواء، قال سبحانه: ﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَو أُنْثىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُون﴾ .(٢)

وممّا يعرب عن موقف القرآن الكريم في خلقة المرأة: هو انه جعل حرمة نفس الأُنثى كحرمة نفس الذكر، وانّ قتل واحد منهما يعادل قتل جميع الناس، قال سبحانه: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّما قَتَلَ النّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحياها فَكَأَنَّما أَحْيا النّاسَ جَمِيعاً﴾ .(٣)

فقتل المرأة كقتل الرجل عند الله سواء فمن قتل واحداً منهما فكأنّما قتل الناس جميعاً، أفيتصور تكريم فوق ذلك؟!

وممّا يعرب عن أنّ نظر الإسلام إلى الشطرين نظرة واحدة هو

---

١ . الإسراء : ٧٠.

٢ . النحل : ٩٧.

٣ . المائدة : ٣٢.

انّه يتخذ النفس موضوعاً لبعض إحكامه في مجال القصاص دون أن يركز على الذكر، قال سبحانه: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالعَيْنَ بِالعَيْنِ وَالأَنْفَ بِالأَنْفِ وَالأُذُنَ بِالأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالجُرُوح قِصاص﴾.[١] حتى أنّه سبحانه يصف من لم يحكم على وفق الآية بأنّه ظالم، ويقول: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَل اللهُ فَأُولئِكَ هُمُ الظّالِمُون﴾.

إنّ الرسول يجعل دماء المسلمين في ميزان واحد ويصف ذمّة الجميع بأنّها ذمّة واحدة، ويقول: "المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم"[٢] فالمرأة والرجل يتشاركان في لزوم احترام إيجار كل واحد منهما فرداً من المشركين.

نعم مشاركة المرأة والرجل في القصاص لا يلازم مشاركتهما في الدية، لأنّ المعيار في القصاص غير المعيار في الدية، فكل من جنى على إنسان يقتص منه باعتبار انّ الجاني أعدم إنساناً فيعادل بإعدامه.

وأمّا الدية فالمعيار في تعيينها هو تحديد الخسارة والضرر المادي التي منيت بها الأُسرة، ولا شك انّ خسارة الأُسرة بفقد معيلها الرجل هي أكبر من خسارتها بفقد الأُنثى، فلذلك صارت دية المرأة نصف دية الرجل على الرغم من أنّ المصيبة على حد سواء، وهذا لا يعني

١. المائدة: ٤٥.

٢. مسند أحمد: ٢ / ١٩٢.

اختلافهما في الإنسانية.

إلى هنا تبين واقع خلقة كل مـن الرجل والمرأة وانّهما متماثلان لا يتميّز أحدهما عن الآخر في ذلك المجال.

وأمّا ما يرجع إلى الأُمور النفسية والروحية عند المرأة والرجل، فنقول: لا شك ثمـة فارق واضح وجلي بين الرجـل والمرأة من هذه الـزاوية وهـي انّ المرأة جياشـة العـاطفـة ملؤهـا الحنـان والعطف واللطافة ولها روح ظريفة حسّاسة.

أودعت يـد الخلقة ذلك فيها لتنسجـم مع المسؤوليـة الملقاة على عاتقها كتربيـة الأطفال التى ترافقها مشـاق ومصاعب جمّة لا يتحملهـا الرجـل عـادة في حين انّ الرجـل يفقد تلـك العـواطف الجيـاشـة، لأنّـه خلق لـوظـائف أُخـرى تتطلـب لنفسهـا الغلظـة والخشونة لتنسجم مع المسؤوليات التي تقع على عاتقه.

فالعـواطف الجياشة إذا تقـارنت مع الغلظة والخشـونة وفق الضوابط والأُصول الإسلامية تجعل الحياة متكافئة ومتوازنة يسودها العدل والمساواة والود والاحترام.

إلى هنا تم ما نروم إليه من العنوان الأوّل.

الثاني: النظر إلى حقوقها في القرآن الكريم

حظيـت المرأة في الإسلام بحقـوق واسعة، قـد بحث عنهـا

الفقهاء في كتبهم في أبواب خاصة لا يمكن لنا الإشارة إلى قليل منها فضلاً عن كثيرها، وانّما نقتبس بعضها.

نزل القرآن الكريم وكانت المرأة محرومة من أبسط حقوقها حتى ميراثها بل كانت كالمال تورث للآخرين ، وفي هذا الجو المفعم بإهدار حقوقها، قال: **﴿لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمّا تَرَكَ الوالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ وَلِلنِّساءِ نَصيبٌ مِمّا تَرَكَ الوَالِدانِ وَالأَقْرَبُونَ مِمّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيباً مَفْرُوضاً﴾**.(١)

وبذلك كسر الطوق الذي أحاط بالمرأة وحال بينها وبين ميراثها في سورة خاصة باسمها ــ أعني: سورة النساء ــ وهي في ميراثها تارة تعادل الذكر، وأُخرى تنقص عنه، وثالثة تزيد عليه، حسب المصالح المذكورة في محلها.

وما اشتهر بأنّ ميراث المرأة ينقص عن ميراث الرجل دائماً، فليس له مسحة من الحق بل تتراوح فريضتها بين التساوي والنقصان والزيادة كما هو واضح لمن لاحظ الفرائض الإسلامية، ففيما إذا كان المورث هو الأب والأُم فللذكر مثل حظ الانثيين، وفيما إذا كان المورث هو الولد فالأُم والأب متساويان، يقول سبحانه: **﴿لِكُلِّ واحِدٍ مِنْهُما السُّدُسُ﴾**.(٢)

---

١ . النساء : ٧ .

٢ . النساء : ١١.

وإذا تركت المرأة المتوفّاة زوجها وابنتها، فالابنة ترث النصف والزوج الربع، فترث الأُنثى ضعف ما يرثه الذكر، قال سبحانه: ﴿فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمّا تَرَكْنَ مِنْ بَعْدِ وَصِيّةٍ يُوصِينَ بِها أَوْ دَيْن﴾.(١)

إلى غير ذلك من صور الفرائض التي شرحها الفقهاء.

نعم الاختلاف في الميراث تابع لملاكات خاصة يجمعها عنوان الأقربية، ومسؤولية الإنفاق ، فالأقرب يمنع الأبعد، كما أنّ من يقع على عاتقه الإنفاق يرث أكثر من غيره.

ومن حقوقها حريتها المالية التي ما بلغ إليها الغرب إلى الأمس الدابر، قال سبحانه: ﴿لِلرِّجالِ نَصِيبٌ مِمّا اكْتَسَبُوا وَلِلنّساءِ نَصِيبٌ مِمّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كانَ بِكُلِّ شَيءٍ عَلِيماً﴾ .(٢) فأي كلمة أظهر وأرفع من هذه الكلمة حيث أعلن عن استقلالية كل من الرجل والمرأة في حقوقهما وأموالهما.

المهر عطية من الزوج إلى الزوجة وله تأثير في إحياء شخصية المرأة وبقاء علقة الزوجية، فإذا تزوج الرجل على مهر ليس له التنصل عن تعهده فيجب عليه إعطاء ما نحل، قال سبحانه :﴿وَآتُوا النِّساءَ صَدُقاتِهِنَّ نِحْلَةً﴾ .(٣)

---

١. النساء : ١٢.

٢. النساء : ٣٢.

٣. النساء : ٤ .

نعم لو وهبت بطيب نفسها جاز للرجل أخذه شأن كل هبة كان للواهب فيه رضا قال سبحانه: ﴿فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْساً فَكُلُوهُ هَنِيئاً مَرِيئاً﴾.[١]

إن القرآن يندد بزوج يضيق الخناق على زوجته ويسيء معاملتها كي تتنازل بذلك عن مهرها، يقول سبحانه: ﴿وَلاَ تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ إِلاَّ أَنْ يَأْتِينَ بِفاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَعاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾.[٢]

ثم يؤكد مرة أُخرى بأنّه لو دفع الزوج لها مالاً كثيراً فليس له أخذه منها، يقول سبحانه: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبدالَ زَوْجٍ مكانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْداهُنَّ قِنطاراً فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيئاً أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتاناً وَإِثْماً مُبِيناً﴾.[٣]

الثالث: الواجبات التي تقع على عاتقها

إنّ التعاون بين أفراد المجتمع الإنساني شرط بقائه، فلو حذفنا التعاون من قاموس المجتمع لانهار، والأُسرة مجتمع صغير ولبنة أُولى للمجتمع الكبير فلا تقوم حياة الأُسرة إلاّ بالتعاون، وحقيقة التعاون

---

١. النساء: ٤.

٢. النساء: ١٩.

٣. النساء: ٢٠.

عبارة عن أن يكون كل واحد له حـق وعليه حق، وهذا ما يعبّر عنه الذكـر الحكيم بكلمة بليغة جامعـة لا يمكن أن يباريه فيهـا أحد، قال سبحانه: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ .[1]

فيظهـر معنى الآيـة من خـلال النظـر إلى الأُسرة الإسلامية فمسؤوليـة المرأة القيام بـالحضانـة وتربية الأطفـال وليس هـذا أمراً سهلاً،و لا تقوم بها إلاّ الأُمّ التي ينبض قلبها بالرأفة والحنان.

ومـن زعم انّ دور الحضـانـة تحل محل الأُمّ في القيـام بتلـك الوظائف فقد أخطأ ولم يقف على المضـاعفات السلبية التي تتركها تلك الدور على حالات الأطفال النفسية.

وفي مقابل تلك الحقوق ثمة حقوق للرجل لا بد له من القيام بما تحتاج إليـه المرأة في حياتها الضرورية والكماليـة فيشير القرآن إلى تلك المسؤولية الكبيرة على عاتق المرأة، بقوله : ﴿وَالوالِداتُ يُرْضِعْنَ أَولادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ﴾ .

كما يشير إلى المسؤوليـة التي تقع على عاتـق الرجل، بقـوله : ﴿وَعَلى المَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاّ وُسْعها﴾ .[2]

فكل مـن الزوجين يسعـى في إقامـة دعامـة الأُسرة وبـذلك

---

١ . البقرة : ٢٢٨.

٢ . البقرة : ٢٣٣.

تكون الزوجة عوناً للزوج، والـزوج عوناً للزوجة ويكون العيش بينهما رغيداً طيباً.

هـذه نظـرة إجمالية إلى مـلامـح المرأة في القرآن وثمـة بحـوث ضافيـة لا سيما حول حـريتها الثقافيـة والاجتماعية والسياسـة التي طرحت في العصور المتأخرة وموقف القرآن منها نتركها إلى مجال آخر.

المساواة والعدالة

إنّ الغرب يتبنّى موقف المساواة بين الرجل والمرأة ويريد منهما أن ينزلا إلى معترك الحياة بلا استثناء لكي يقوما بعامة الوظائف كتفاً إلى كتف سواء أكانت منسجمة مع طبيعة كل منهما أم لا.

هذا هو الذي يتبنّاه الغـرب، فالمرأة لا بد لها ان تشارك الرجل في ميـادين الحرب والقتـال والسيـاسة والـزعـامـة وميادين العمل والاستثمار ولا يترك ميدانـاً خاصاً للمـرأة أو الرجل إلاّ يسـوقهما إليه بدعوى المساواة.

ولكن القرآن يتبنّى العدالة بين الرجل والمرأة ويخالف المساواة، إذ ربما تكون المساواة ضد العـدالة وربما لا تنسجم مع طبيعتها ومن يدّعي المساواة، فكأنّه ينكر الفوارق الموجودة في نفسياتهما وغرائزهما ويتعامل معهما معـاملة إنسان استلبت عنه الغرائز الفطـرية ولم يبق فيه رمق إلاّ القيام بالأعمال المخوّلة له.

وهذا موضوع هام يحتاج إلى التفصيل حتى يتّضح من خلاله موقف القرآن.

إنّ التساوي في الإنسانية لا يعني التساوي في جميع الجهات وفي القدرات والغرائز والنفسيات حتى يتجلّى الجنسان، جنساً واحداً لا يختلفان إلاّ شكلياً ومن يقول ذلك فانّما يقول في لسانه وينكره عقله ولبه.

لا شك انّ بين الجنسين فوارق ذاتية وعرضية، فالأُولى نابعة من خلقتها، والثانية تلازم وجودها حسب ظروفها

وبيئتها وبالتالي صارت تلك الفوارق مبدأً للاختلاف في المسؤوليات والأحكام.

جعل الإسلام فطرة المرأة وخلقتها، المقياس الوحيد في تشريعه وتقنينه، وهذا هو سر خلود تشريعه وأمّا التشريع الذي لا يأخذ الفطرة بنظر الاعتبار، ويقنن لكل من الأُنثى والذكر على حد سواء فربما لا ينسجم مع الفطرة والخلقة ويخلق تعارضاً بين القانون ومورده ويورث مضاعفات كثيرة كما نشاهده اليوم في الحضارة الغربية.

شبهات وحلول

١ . الرجال قوّامون على النساء

أعطى سبحانه إدارة شؤون الأُسرة للرجال دون النساء ومعنى ذلك انّ الرجل هو الذي يترأس الجهات التي بها قوام العائلة، لأنّ الإدارة تتقوّم بأمرين متحقّقين في الرجل دون المرأة وهما:

القوة وتحمل الشدائد.

الإنفاق ورفع الحاجات المالية.

والرجل يتوفر فيه الأمر الأوّل أكثر من غيره.

وأمّا الإنفاق فقد فرض الإسلام إدارة أُمور الأُسرة المالية على الزوج فهو الذي يتحمل المشاق ليدير دفة العائلة.

وقد أشار سبحانه إلى تلك الإدارة وانّها تدخل في صلاحيات الرجل: ﴿**الرِّجالُ قَوّامُونَ عَلى النِّساء**﴾ كما أشار إلى الشرطين بقوله: ١ .﴿**بِما فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ**﴾ ٢ .﴿**وَبِما أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوالِهِمْ**﴾.[1]

وليس المراد من الأفضلية عند الله هو ميزان القرب منه سبحانه، بل المراد هو التفوّق على الجنس الآخر في تحمل الصبر

١ . النساء : ٣٤.

والاستقامة على الشدائد. وهو أمر تكويني لا يمكن إنكاره ، ومن أنكر فانّما أنكره بلسانه دون قلبه، وهذا هو المراد من الأفضلية.

وأمّا الشطر الثاني فهو حكم تكليفي وضعه سبحانه على عاتق الرجل، وبذلك صار أولى بإدارة شؤون الأُسرة من المرأة، وعلى ذلك سارت الحياة الاجتماعية.

فلو كان هناك انتخاب طبيعي فقد اختير الرجل لإدارة الأُسرة اختياراً طبيعياً أمضاه الشارع.

هذا هو معنى القوامية وليس فيه أي هدر لكرامتها.

نعم تفسير القوامية بالسلطة على المرأة وإجحاف حقّها والتدخل في شؤونها بما هو خارج عن إطار العلقة الزوجية أمر مرفوض، ومن فسر الآية به فقد افترى على الله سبحانه.

فإدارة الأُسرة والتخطيط لها نحو مستقبل أفضل حسب الاستطاعة شيء وإنكار حق الزوجة والتسلّط عليها وإجحاف حقوقها شيء آخر ومن خلط بين الأمرين فقد انحرف عن جادة الصواب.

٢. تعدّد الزوجات

من المسائل التى يثيرها الغرب والمؤسسات التى تدافع عن حقوق النساء هي مسألة تجويز تعدّد الزوجات التي شرعها

الإسلام، ومنطقهم انّ تجويز تعدّد الزوجات يشكل معاناة للزوجة أوّلاً ويخالف المساواة بين الزوج والزوجة ثانياً، وسنقوم بتسليط الضوء على كلا الأمرين، فنقول:

لا شك انّ الأصل في تشكيل الأُسرة هو أن يكتفي الزوج بزوجة واحدة ويُعرض عن مسألة تعدّد الزوجات رعاية لحال زوجته، وممّا لا شك فيه انّ الاكتفاء بزوجة واحدة يشكّل رصيداً لبقاء أواصر الأُسرة ويؤدي إلى سيادة الثقة المتبادلة بين الزوجين.

ومع الاعتراف بذلك لكن ربما يواجه الزوج بعض الظروف والحالات التى تلجئه إلى عدم الاكتفاء بزوجة واحدة وهذا أمر لا يمكن لأحد إنكاره، نظير:

إذا كانت الزوجة مريضة مدة مديدة، أو كانت عقيمة لا تنجب، أو كانت غريزتها الجنسية ضعيفة لا تلبي حاجات الزوج، أو كان الزوج يقطن في مناطق نائية بعيداً عن زوجته مدة لا يستهان بها، ففي تلك الظروف لا يتمكن الزوج من الاقتصار على زوجة واحدة، فإمامه ـ مع قطع النظر عن تجويز تعدّد الزوجات ـ طريقان:

الأوّل: أن يكبح جماح شهوته ويحد من نشاطها.

الثاني: أن ينزلق في مهاوي الفساد والفحشاء.

أمّا الأوّل فلا يقوم به إلاّ الأمثل فالأمثل من الرجال.

وأمّا الثاني: فهو يخالف كرامته وشرفه وينجم عنه أضرار بدنية

ونفسية وغير ذلك.

فإذا سدّ الطـريقان أمامـه فلا يبقى له سبيل سـوى أن يختار زوجة بعقـد شرعي مع مهر ونفقـة وسكنى لتدخـل في نطاق الأُسرة ويتحمّل مسؤوليـة الجميع على حد سواء مع تطبيق العـدالة، وهذا هو الذي دعا الإسلام إلى تشريع تعدّد الـزوجات، قال سبحـانه: ﴿فَانْكِحُوا ما طابَ لَكُمْ مِنَ النِّساءِ مَثنىٰ وَثُلاثَ ورُباعَ﴾ .[1]

ومن الطبيعي معاناة الزوجة الأُولى مع قيام الرجل بانتخاب زوجة أُخـرى له ولكنّه أمـام انجراف الرجل في الفحشـاء وانحلال الأُسرة من رأس أخف وطأة وأقل معاناة.

إنّ الغرب وإن طبّل وزمّر ضد قانون تعدّد الزوجات لكنّه في الواقع اتّخذ سلوكاً موافقاً مع هذا القانون لكن بصورة مشوهة حيث إنّه يقتنـع بزوجـة قانونيـة في حين يقيم علاقـات جنسية مـع نساء كثيرات خارج إطار الأُسرة ولا يكتفي بواحدة.

إنّ نظام الأُسرة في الغرب أخذ يضمحلّ وينحلّ وما ذلك إلاّ لخيانـة الرجـل زوجته بإقـامة عـلاقات جنسية مـع نساء أُخـر وما ينطوي عليه مـن فقدان الثقة واضمحلال الروابـط العاطفية بينهما وينتهي إلى انفصام أواصر الأُسرة قانونياً وعملياً.

وأمّا مسألة المساواة حيث أُبيح للزوج إقامة علاقات جنسية

١ . النساء : ٣ .

مشروعـة مع نسـاء أُخر دون الـزوجـة، فهذا أمـر نحن في غنـى عن الإجابة عنـه، فإنّ تجويز تعدّد الأزواج للزوجـة يفصم عمود النسب ويعصف بـالأُسرة ويترك ألواناً من الأمـراض وتفسد العلاقـات من رأس وحينها يكون المجتمع مرتعاً خصباً للزنا والفحشاء.

وبذلك يعلم سر التشريع الإسلامي في تجويز تعدّد الزوجات دون الأزواج.

٣. الضرب عند النشوز

من الإشكـالات المثـارة على حقـوق المرأة في الإسلام هو انّه يسوغ للزوج أن يضرب الزوجة عند نشـوزها إذا لم ترجع الزوجة ببذل النصيحـة والعظة، وهجـران مضجعهـا، قـال سبحانـه: ﴿**وَاللاّتي تَخافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي المَضاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبيلاً إِنَّ اللهَ كانَ عَلِيّاً كَبيراً**﴾ .[١]

والحقّ انّ ذلـك الإشكـال المثـار نجم عـن عـدم التـدبّـر في مضمون الآيـة ومورد إباحـة الضرب. فالآية تبحث في امـرأة ناشرة أطاحت بحقوق زوجها وأساءت بإنسانيته دون أن يضيع منها حق، ففي ذلك الجو المفعم بتمرّد الزوجـة على زوجها حتى ظلت متشبثة به بعـد معالجتها بـالنصح والعظة أو هجرانها في الفـراش لا محيص

١ . النساء : ٣٤.

للـزوج عن معالجتهـا بـالضرب غير المبرح حتى تـردع الزوجـة عن شذوذها الذي طغى على إنسانيتها وكدّر صفوة الجو العائلي.

وبذلك اتّضح **أوّلاً**: أنّ البحث ليـس في زوجة مقهـورة على أمرهـا، ومظلومة في حقّهـا، فاندفعت إلى التمـرد دفاعاً عـن حقها وكرامتها، بل الكلام في المرأة التي قام الزوج بجميع حقوقها ولكنّها طغت على حقوق الزوج وتمرّدت عليه.

وثانياً: ليس المراد من الضرب هـو الضرب المبرح ولا المدمي بل الضرب المخيـف حتى تـردع عـن شذوذهـا، وقـد فسر الإمـام الباقر عليه السلام الضرب في الآية بالضرب بالسواك.(١)

وهذه الحالة فريدة من نوعها وقلّما يتفق أن لا يثمر العلاجان الأوّلان وعلى فرض الـوصول إلى هذه الدرجـة فليس الضرب ضرباً مبرحـاً وانّما الغرض فيـه هـو إيجاد الـرعب في قلبهـا كي تـردع عن تمردها.

روى الإمام الباقر عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: أيضرب أحدكم المرأة ثم يعانقها؟!

وفي الختـام نعطف أنظار الحضّـار إلى كلمـة قيّمة عن إمـام حكيم خبير بداء المجتمع وداوئه ألا وهو الإمـام علي بن أبي طالب

---

١ . مجمع البيان: ج ٢ ، في تفسير الآية.

عليه السلام حيث قال: ولا تملك المرأة مـن أمرها ما جـاوز نفسها فإنّ المرأة ريحانه وليست قهرمانة[1] فلنتعامل معها، بما إنّها ريحانـة لا قهرمانة ولنطلب منها ما يطلب من موجـود ظريف كوردة الربيع لا تتحمل البرد القارص ولا الحر الذي يذبلها.

ملاحظات

بما أنّ محور الحديث دار حـول إحـدى المسـائل الإسـلاميـة المسلّم بها، كان الاعتراض قليـلاً جدّاً لكن رغم ذلك كـانت هناك بعض الأسئلة، اخترنا اثنين منها وذلك لأهميتهما:

السؤال الأوّل: إنّكم اعتبرتم أنّ محور الحديث في المحاضرة هو حقـوق المرأة من وجهـة نظـر القـرآن، ونحـن لا نعلم سبـب عـدم عطفكم السنّـة على القرآن باعتبـارها من مصادر الأحكـام وتشريع القوانين في الإسلام؟

الجواب: إنّ الموضوع يستـوعب بحثاً من عدة جـوانب، وضم جميع الجوانب في محاضرة واحـدة أمر غير معقول، لذا اخترنـا دراسة الموضوع من وجهة نظر القرآن فحسب، رغم ذلك أضفنا إليه بعض ما ورد من الرسول صلى الله عليه وآله من أحاديث.

١ . نهج البلاغة، قسم الرسائل ، الرسالة ٣١.

السؤال الثاني: قال طالب بعدما عرّف نفسه بأنه من البوسنة والهرسك:

جاءنا أثناء الحرب مجموعة من المبلّغين الإيرانيين حملوا معهم مساعدات وزّعوها على المشرّدين في بلدنا، وقد كانت لهم نشاطات في مجال الإعلام المذهبي والترويج لمذهب الشيعة؛ وهو أمر أحدث تفرقة بين الناس في ذلك الإقليم.

في الإجابة قلت: إذا كان الحوار ذات صبغة واقعية ويخلو من الإثارة، فلا يؤدي إلاّ إلى الوحدة، ويعين على رفع الفرقة بين المسلمين.

فلنفرض أنّ ما يحمله المسلمون البوسنيون عن الشيعة من انطباعات خاطئة كانت بسبب الإعلام المدسوس للدولة العثمانية في الأزمنة الماضية، وللشيوعية في الأزمنة الحالية. فإذا جاء بعض من المبلّغين الشيعة لرفع هذه الانطباعات الكاذبة ولتبيين هذا المذهب كما هو ولكي يرفعوا الأوهام العالقة في الأذهان ويؤكدوا على المشتركات الدينية، فإنّ عملهم هذا صحيح ولا إشكال في ذلك.

أيّها الطالب إنّي كنت أتوقع منك الشكرَ والثناء، وذلك لأنّ الجمهورية الإسلامية همّت بمساعدتكم في أحلك الظروف وأسوئها، وقد كانت إعانتها لكم أكثر من إعانة باقي الحكومات.

ثم تركت القاعة قاصداً قاعة الطعام. وقد كانت الأطعمة التي أعدوها لنا عربية تقليدية، وشاهدت الجميع يغسلون أيديهم بالصابون ليتناولوا بها الرزّ لا با لملاعق.

وفي النهاية تركت الجامعة قاصداً عمّان وسط توديع حارّ من قبل الأساتذة.

مراسم ليلة التاسع من محرم

ليلة التاسع من محرم كانت ليلة خميس، وتحدّثت في تلك الليلة بعد إقامة صلاتي المغرب والعشاء عن جهاد النفس أي الجهاد الاكبر، حيث خاطب الرسول القادمين من إحدى المعارك بالحديث التالي:

" مرحباً بقوم قد قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. فقيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس ".[1]

كم من الرجال استطاعوا قهر الفطاحل، إلاّ أنّهم استسلموا أمام رغبة نفسانية صغيرة ما تمكّنوا من الإغماض عنها.

إنّ أخا سيد الشهداء رافع الراية وقمر بني هاشم أبا الفضل

---

١ . الكافي :٥/ ١٢ ح٣.

العباس أدّى ما عليه من جهاد بكلا معنييه، فهو جاهد الأعداء بأفضل وجه كما جاهد نفسه كذلك حيث تجلّى هذا الجهاد بأبهى صوره وأروع أشكاله يوم عاشوراء عندما وصل العباس إلى الشريعة رغم كثرة الأعداء الذين أحاطوا به من كلّ جانب، نزل إلى الفرات مطمئناً غير مبال بهم، ولمّا اغترف من الماء ليشرب تذكر عطش أخيه و إمامه الحسين عليه السلام فرمى الماء، وهو يقول:

يا نفس من بعد الحسين هوني ... وبعده (لا كنت ان تكوني)
هذا حسين وارد المنون ... وتشربين بارد المعين

إلهي! ارزقنا قدرة التحكم بالنفس الأمّارة، ووفقنا فى جهاد هوى النفس، واحفظنا من شر النفس الأمّارة في كل لحظة وساعة!

الفصل السابع

سبل الوحدة الإسلامية

محاضرة في مسجد الملك عبد الله

إنّ يوم الخميس الموافق ٧/ ٤/ ١٩٩٨ كان اليوم السادس من إقامتنا في الأردن . وقد رفضت جميع الدعوات الموجّهة لي بعد فراغي من المحاضرة في الجامعة. واليوم هـذا يصادف اليوم العاشر من محرم الحرام لعام ١٤١٩ هـ ، حسب التقـويم الأردني؛ إلاّ أنّـه يصـادف التاسع من محرم حسب تقويم إيران. والسفارة الإيرانية هناك كانت تقيم المراسم وفق التقويم الرسمى لإيران لذا أعلنت يوم الجمعة يوم عاشـوراء، رغم أنّ الشيعة ومنهم العراقيـون أقاموا مراسم عـاشوراء يوم الخميس في صحن جعفر بن أبي طالب عليه السلام.

على أي حـال؛ فإنّ بـرنامجنـا ليـوم الخميس كـان عبـارة عن محاضرة تلقى في مسجـد الملك عبـد الله مؤسـس المملكة الأردنيـة

الهاشمية، والمسجد هذا يقع في وسط العاصمة ويبدو بناؤه بشكل لا أعمدة له. ولم أشهد في عمري مسجداً يضاهيه في الجمال إلاّ ما قلّ وندر. وهو يضم مراكز عديدة ومتنوعة.

إنّ هذا اللقاء كان قد رتّبه ودعا إليه وزير الأوقاف الدكتور السيد "عبد السلام العبادي"، وقد حضر أئمة الجمعة والجماعة في مدينة عمّان وموظفو وزارة الأوقاف والصحفيّون وكذا بعض من عامة الناس وقد سجّل تلفزيون عمّان المحاضرة. وقد كان بجانبي على المنصة كلّ من وزير الأوقاف وسفير الجمهورية الإسلامية.

يمكنني أن أدّعي وأنا واثق من ادّعائي بالكامل: أنّ توفيقاً كهذا قلّما حصل للشيعة في التاريخ، حيث يحاضر شيعي في أفضل المساجد وأجملها وفي عاصمة أهل السنّة وفي جمع من العلماء وأئمة الجماعات، ويسعى من خلال حديثه هذا أن يقرّب بين المذهبين ويرفع الإبهامات التي تحوم حول المذهب ويشرح ما أُسيء فهمه، ويمهّد الطريق من خلال هذا لغيره من علماء الشيعة وخطبائهم. وقد كان ضمن الحاضرين رجال دين يبلغ أعمار بعضهم السبعين سنة كما يضمّ طلاباً في العشرين من عمرهم.

بدأت حديثي بعد حمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على نبيّه وآله وصحبه المنتجبين بالآية التالية:

﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرَّقُوا وَٱذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ

عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنتُمْ أَعـداءً فَـأَلَّفَ بَيْـنَ قُلُـوبِكُـمْ فَـأَصْبَحْتُـمْ بِنِعْمَتِـهِ إِخْوانا ... ﴾[١] صدق الله العلي العظيم.

لا يمكن العثور على شخص في العالم لا يمتدح الوحدة والتوحّد، كما لا نجد شخصاً لا يذم التفرقة والطائفية. وذلك لأنّ مسألة(وحدة الكلمة) أصبحت قضية بديهية والعالم بأجمعه يخطو باتجاهها. وحتى الدول التي تختلف في نوعية الحكومة وفي العقيدة والمبادئ، لكن تتفق فيما بينها في المصالح الجماعية وتتحد فيها. إنّ الدول الأُوربية بعد قرون من الاختلاف والنزاع أخذت تتجه نحو الوحدة في مجال الاقتصاد والسياسة والعملة.

في يوم كان العالم يَحكمه معسكران هما المعسكر الشرقي الشيوعي؛ والمعسكر الغربي الامبريالي الاختلاف بينهما كان مشهوداً في مجال العقيدة والتوجهات السياسية وغير ذلك، إلاّ أنّهما كانا يتّحدان في المجالات التي تقتضي مصالحهم ذلك.

نحن الآن نعيش في زمن ترك أتباع الديانتين(المسيحية واليهودية) المتخاصمتين، نزاعاتها التي طالت ما يقرب من عشرين قرناً، بحيث ما باتت المسيحية تتهم اليهودية وأتباعها بصلب المسيح عليه السلام، بل ذهب أتباعها إلى أبعد من ذلك ليعلن زعيمها البابا براءة اليهود من هذه التهمة.

---

١ . آل عمران : ١٠٣.

وكما يعبّر بعض من كبارنا: إنّ الشرق والغرب كطرفي المقص فيجتمعان لقطع الجذور غير المرغوبة لديهم، ثم يفترقان.

نحن نعيش الآن في ظل ظروف صعبة للغاية، حيث يحتل اليهود أوّل قبلة للمسلمين ومبدأ عروج الرسول الكريم ﷺ. ويسعى معسكرا الشرق والغرب إلى إثارة الفتن وتأجيج الحروب بين دول العالم الثالث لاسيما الإسلامية منها بغية بيع كمّية أكبر من الأسلحة لها. وفي ظل ظروف كهذه أليس من الضروري على مليار ونيف مسلم أن يتحدوا؟ لقد شاهدنا جميعاً أن آثار الحرب المفروضة بين العراق وإيران لم تنته حتى قام العراق باعتداء آخر ضد الكويت، الأمر الذي جرّ تسع عشرة دولة إلى الخليج وعلى رأسها أمريكا إلى الدخول في حرب مع العراق وذلك سعياً منها لحفظ مصالحها في المنطقة، وقد أضفى هذا الاعتداء الشرعية على تواجد قوات هذه الدولة.

إنّ الغرب لم يتحمل وجود دولة إسلامية موحّدة كما كانت الدولة العثمانية، لذلك أسقطها بيد المسلمين أنفسهم. أحيا في تركيا مبدأ القومية التركية وفي الدول العربية مبدأ القومية العربية وبذلك تهدّمت الدولة العثمانية الكبرى لتتحول إلى دويلات تفقد القدرة على الدفاع عن نفسها فضلاً عن غيرها.

إنّ المستعمرين الأجانب سرقوا خلال قرنين من الاحتلال

لدولنا ثـرواتنا الوطنية الكثيرة بحيث جعلونـا نحتاج إليهم في أبسط الدراسات والبحوث المتعلّقة بتراثنا وغيره!

وفى ظل هـذه الظـروف بـرزت شخصيـات تحنّ إلى شعـوبها وتعي تعاليم القـرآن حيث يقول: ﴿وَٱعْتَصِمُوا بِحَبْـلِ اللهِ جَمِيعاً﴾ وتدعو المسلمين والعالم الإسلامي عموماً للوحدة والتعاون؛ وتسعى لأجل إقرار وإحياء الاخوة والمساواة والتسامح في هذا العالم.

منذ اليـوم الذي تجسّـد فيه الإسـلام كحكومـة ودولة، وأخـذ يتسع ليشمـل المنطقـة ويطهّـر جزيـرة العـرب مـن اليهـود؛ سعت شبكـات التجسس اليهوديـة للحؤول دون اتحاد المسلمين، وتـدمير الوحدة الإسلامية أينما حصلت.

١ . نزل النبي الأكرم ﷺ دار هجرته والتفّت حوله القبيلتان: الأوس والخزرج، فمـرّ شأس بـن قيس ــ الـذي كـان شيخـاً عظيم الكفر، شـديد الضغن على المسلمين ، شديـد الحسد لهم ـ على نفر من أصحـاب رسـول الله من الأوس والخزرج في مجلـس قـد جمعهم يتحدّثـون فيه، فغاظـه ما رأى من أُلفتهم وجماعتهـم، وصلاح ذات بينهم على الإسـلام، بعد الذي كـان بينهم من العـداوة في الجاهلية. فقال : قد اجتمع ملأُ بني قَيْلـة بهذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهـم من قرار، فأمر فتىً شاباً من اليهود كان معهم، فقال : إعمـد إليهم فاجلـس معهم، ثم اذكـر يوم بعـاث، يوم اقتتلت فيـه

الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه يومئذٍ للأوس على الخزرج، وكان على الأوس يومئذٍ حضير بن سماك الاشهري، وعلى الخزرج عمرو بن النعمان البياضي، فقتلا جميعاً .

دخل الشاب اليهودي مجتمع القوم، فأخذ يذكر مقاتلتهم ومضاربتهم في عصر الجاهلية ، فأحيا فيهم حميّتها حتى استعدوا للنزاع والجدال بحجة أنّهم قتل بعضهم بعضاً في العصر الجاهلي يوم بعاث، وأخذ الشاب يُؤجّج نار الفتنة ويصب الزيت على النار حتى تواثب رجلان من الحيّين فتقاولا.

فبلغ ذلك رسول الله، فخرج إليهم فيمن معه من أصحابه المهاجرين، حتى جاءهم فقال : يا معشر المسلمين ! الله ، الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ، بعد أن هداكم الله بالإسلام وأكرمكم به وقطع به عنكم أمر الجاهلية، واستنقذكم من الكفر وألّف به بين قلوبكم؟

كانت كلمة النبي كالماء المصبوب على النار بشدة وقوة، حيث عرف القوم أنّها نزعة من الشيطان وكيد من عدوهم، فبكوا وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضاً، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ مذعنين، متسالمين ، مطيعين قد دفع الله عنهم كيد عدو الله شأس بن قيس، فأنزل الله تعالى في شأس وما صنع: ﴿قُلْ

يا أَهْلَ الكِتابِ لِمَ تَكْفُرونَ ... ﴾ .(١)

لم يكن في عهد الرسول إلاّ شأس واحد، و إذا كان أكثر من ذلك؛ فإنّ خططه ما تؤول إلاّ إلى الفشل لما يبديه الرسول الأكرم ﷺ من تدبير وحكمة في إدارة المسلمين. ونأتي هنا بشاهد آخر يصبّ في نفس المجال.

٢ . انتصر المسلمون على قبيلة بني المصطلق وقتل من قتل من العدو وأُسر من أسر منهم، فبينا رسول الله ﷺ على مائهم، نشب النزاع بين رجل من الأنصار ورجل من المهاجرين، فصرخ الأنصاري ، فقال : يا معشر الأنصار، وصرخ الآخر، وقال : يا معشر المهاجرين ، فلمّا سمعها النبي، قال : دعوها فإنّها منتنة، يعني إنّها كلمة خبيثة، لأنّها من دعوى الجاهلية، والله سبحانه جعل المؤمنين إخوة وصيّرهم حزباً واحداً، فينبغي أن تكون الدعوة في كل مكان وزمان لصالح الإسلام والمسلمين كافّة، لا لصالح قوم ضد آخرين ، فمن دعا في الإسلام بدعوى الجاهلية يعزّر .(٢)

إنّ في التاريخ نماذج كثيرة من هذا القبيل، وكلّها تكشف عن أنّ نقطة قوة المسلمين هي اتّحادهم، وهي نفسها كانت ولا زالت هدفاً للأعداء.

---

١ . السيرة النبوية: ٢ / ٢٥٠.

٢. السيرة النبوية : ٣ / ٣٠٣ غزوة بني المصطلق .

ألا ينبغي الاعتبار من تاريخ المسلمين؛ والعمل لا لأجل الاتقاء من الفرقة فحسب، بل العمل لأجل وحدة المسلمين والسعي في هذا السبيل كذلك، حتى نجني ثمار الوحدة في العالَمَين.

عناصر التقريب

إنّ المسلمين متّفقون في الأُصول والمبادئ الاعتقادية التي تعدّ محوراً للإيمان والكفر؛ فهم يعتقدون بالإله الواحد والنبي محمد ﷺ وبيوم المعاد؛ كما أنّهم يتبعون شريعة واحدة، لكنّهم متفرقون رغم حملهم لعناصر الوحدة هذه لماذا؟ لماذا لم يكونوا يداً بيد؟

إنّ التمسّك بأهداب الثقلين يعدّ من وسائل دعم الوحدة وآليّاتها، ونحن نرى المسلمين يكنّون الاحترام لكليهما. إنّ القرآن والعترة مرجعان مسلّمان للعقيدة والأحكام العملية، وهما التركة الثمينة لرسول الله ﷺ حيث قال فيهما: "إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي" . وغرضه من عطف العترة على القرآن هو تعيين مرجع للمسلمين بعد وفاته. وهذا المبدأ من مشتركات المسلمين ويمكنه جمع شمل المسلمين على مائدة الهداية القرآنية وعلوم أهل البيت عليهم السلام .

ممّا يؤسف له أنّ أكثر المسلمين وبسبب الإعلام السقيم لا

يستفيدون من ثروة علوم أهل البيت. مع أنّ عترته وكذا كلامهم وأعمالهم مصونة من الأخطاء طبقاً للآية الكريمة:﴿ ... إِنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ .[١]

إنّ مشتركات الفرق الإسلامية أكثر من أن تعدّ، آمل أن يرزق الله المسلمين في ظل هذه الوحدة العزة والكرامة .

انتهى خطابي هنا وأعلنت عن استعدادي للإجابة عن أي سؤال أو اعتراض يطرح.

السؤال الأوّل

قام المحقّق الشيخ حسن السقاف واسترخص من وزير الأوقاف للسماح لي بالتعريف بواقع التشيّع ومميزاته ومفترقاته عن التسنّن بصراحة ووضوح.

رغم ما أكنّه من احترام لهذا المحقّق الكبير، إلاّ أنّي ما وجدت هذا الاقتراح ينسجم مع المصلحة. وذلك لأنّي لم أر الأرضية الكافية في المخاطبين لاستماع الخلافات، فأعرضت عن إجابته تفصيلاً وأشرت إلى المشتركات دون تفصيل في الفوارق.

---

١. الأحزاب : ٣٣.

السؤال الثاني

قام أحد الحضّار وقال: إنّ مشكلة الاختلاف في الخلافة بعد الرسول ﷺ أكبر مانع من تحقيق الوحدة التي تذهب إليها فنحن نعدّ الخلافة انتخابية، ونعتبر الصدِّيق هو خليفة الرسولﷺ وأنتم تعدّون الخلافة تنصيصية وأن علي بن أبي طالب هو خليفة بعد الرسول. ومع هذا الاختلاف كيف يمكن التوحّد أو التقريب؟

الجواب

إذا بيّنت قضية الخلافة وشرحت ماهيتها، فإنّا سوف لا نجدها مانعاً من الاتحاد مع وجود هذه المشتركات الكثيرة. وذلك للأُمور التالية:

أوّلاً : إنّ الاعتقاد بخلافة الخلفاء الأربعة لا يعدّ من أُصول الدين. وذلك لأنّ هذا الأصل لم يرد في الكتاب والسنّة، ويعدّ المسلمون الذين توفّاهم الأجل قبل وفاة الرسول مؤمنين كاملي الإيمان رغم أنّهم لم يعتقدوا بإمامة واحد من الأربعة.

مبدئياً نقول: إنّ الخلافة بعد الرسول ﷺ تولّاها الكثير، لكن لماذا أصبح الاعتقاد بهؤلاء الأربعة من الأُصول، ولم يحدث ذلك بالنسبة لعمر بن عبد العزيز؟ فخلافته لم تكتسب هذا المقام أبداً لماذا؟

ثانياً: لم يعد كبار أهل السنّة مسألة الخلافة من أُصول الدين. بل من فروعه ويقولـون في هذا المجال: إنّ إجراء أحكام الله وتطبيق الشريعة في صيغة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بحاجة إلى إمام وحاكم؛ وعلى المسلمين أن ينصبوا لهم إماماً.

وعلى هذا؛ فوجوب نصب الإمـام سواء كـان من قبل الله أو من قبل الأُمّة، واجب وحكم شرعي وهـو بمستوى الأحكام الفقهية الأُخرى التي اختلف فيها فقهاء المذاهب.

السؤال الثالث

قام شاب وقال: إنّ أئمة الجمعة والجماعة جميعهم مزكّون من قبل المخـابـرات الأردنية، وإذا كـان فيهـم شخص غير عـادل فإنّ المخـابـرات تحول دون تقلّـده منصـب الإمـامـة؛ رغم ذلـك نـرى أشخاصاً منكم يصلّون في المساجد فرادى ولا يقتدون بأئمتنا؟

الجواب

على هؤلاء أن يقتدوا بالإمام العـادل لينالوا ثواب الجماعة ولا يحرموا منها. لكنّي أسألك الآن: هل أنت اقتديت بإمام شيعي حتى الآن أم أنّ شأنك شأن الشيعة الذين تحدّثت عنهم؟

أجـاب بـالنفي. فضحكـت وقلت: هـذا بـذاك. وضحـك الحضّار كذلك.

السؤال الرابع

قام رجل دين وطرح قضية الاختلاف في الوضوء وقال: إنّكم تمسحون أقدامكم ونحن نغسلها؟

الجواب

هناك أدّلة منطقية تثبت دعوى كلّ من النظريتين، وللشيعة في هذا المجال أدلّتها ومبرّراتها على المسح؛ كما أنّ بعضاً من الصحابة كان يمسح لا يغسل.

يقول ابن عباس: " نزل الكتاب بالمسح، وأبى الناس إلاّ الغسل ".

يقول فقهاء الشيعة: إن ﴿ وأرجُلَكُم﴾ في الآية: ﴿وَٱمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ لا يمكنها أن تكون معطوفة على﴿أَيْدِيَكُمْ﴾ التي وردت في الآية ﴿فَٱغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾ [1]. وذلك لأنّ لازم هذا الكلام وجود الفصل بجملة معترضة بين المعطوف أي ﴿وَأَرْجُلَكُمْ﴾ والمعطوف عليه أي ﴿أَيْدِيَكُمْ﴾ . وهذه الكيفية من الحديث غير جائزة.

على أي حال، نحن لا ننكر أصل الاختلاف، بل إذا لم يكن هناك اختلاف، فإن موضوع حديثنا هنا منتف، وما نقوله هنا هو أن

---

١ . المائدة: ٦

الاختلاف ذات صبغة فقهية.

نسأل الله العلي العظيم أن يمنّ على المسلمين بالوحدة.

بعد هذا الخطاب شكرني الدكتور عبد السلام العبادي وزير الأوقاف، ثم ذهبنا لتفقد أبنية المسجد ومرافقه. وبعدها غادرنا المسجد متوجهين نحو السفارة.

ليلة عاشوراء في السفارة

إنّ ليلة الجمعة كانت ليلة عاشوراء حسب تقويم إيران، وأعضاء السفارة جميعهم من النساء والرجال كانوا قد اجتمعوا في غرفتين. في البداية تلا ابني علي رضا آيات من القرآن الكريم نالت استحسان الحاضرين تحدّثت قليلاً في تلك الليلة عن مقامات سيد الشهداء وانّه كان يقول: " ألا وإنّي لا أظن يوماً لنا من هؤلاء " أي أنّه ما كان ولا يكون أنصار مثلكم، وذلك لأنّ المجاهدين في حياة الرسول وكذا الخلفاء كانوا يتوقعون الحياة والبقاء بعد الجهاد؛ إلا أنّ أصحاب الحسين ما كانوا يتوقعون ذلك، بل كانوا يعلمون أنّ مصيرهم سيؤول إلى الموت ولذلك قال: " إنّي لا أعلم أصحاباً أوفى ولا أفضل من أصحابي " رغم ذلك رفع عنهم وجوب البيعة بل سرحهم وأجاز لهم الذهاب وبتعبيره البليغ جداً " واتّخذوا الليل جملاً " .

رغم ذلك رجّح الصحابة البقـاء دون الذهاب وارتأوا الشهادة على الحياة الفانية، وقـد نالوها في ظهر عاشـوراء وما كانت إلاّ مجداً لهم حيث جعلت منهم أُسوة وقدوة لسالكي طريق الحق.

انتهـت هنـا محاضرتنـا، إلاّ أنّ مـراسـم العـزاء في السفـارة استمرت إلى الصباح، وقد كان قارئ المراثي الحسينية يحظى بدرجة عالية من التأثير في النفوس.

وفي عصر ذلك اليوم غـادرنا الأردن متجهين نحو سـوريا؛ وقد شـاهدت في الطريق سيارة تحمـل عروساً. وما كنـت واثقاً من سوء نيّتهم بل أنّهم يعيشون الجهل المدقع؛ كما لا أعلم بمناشئ هذه الأعمال إلاّ إنّي أتصوّرها كانت بسبب تحوّل السنة الهجرية.

وصلنا إلى الحدود الأردنيـة السوريـة وبعد عمـل الإجراءات القانونية لم يسمح لنا مـوظفو الجمرك الأردني بالانتقال إلى الجمرك السـوري بالسيـارة حيث لم تكـن المسـافـة بين الجمـرك الأردني والسوري قليلة من جانب؛ ومن جانب آخر فإن السيارة التي كان من المقرر أن تقلنا من الحدود السورية إلى دمشق كانت في انتظارنا وبعدما اطّلع مـدير الجمارك الأردنية على ما حصل دعانـا إلى غرفة الاستقبال ورحب بنا.

سألته: ما اسم هذه المنطقة؟

أجاب: " حـوران " . ثم أجـاز لنا الذهـاب بالسيـارة حتى

الجمرك السوري والابتسامة كانت مرتسمة على وجهه.

وفى ليلة الجمعة الموافق ١١ من محرم ١٤١٩ هـ (٨/ ٤/ ١٩٩٨م) دخلنا دمشق. سألت آنذاك عن كيفية إقامة مراسم العزاء؟ أبدى الجميع ارتياحهم من مراسم العزاء وقالوا: إنّ العراقيين كانوا يقيمون المراسم في الزينبية والزوّار وأعضاء السفارة الإيرانية كانوا يقيمون مراسم العزاء في ساحة السفارة. وقد كانت السفارة تعدّ بمثابة الملجأ لجميع الشيعة في سوريا والفضل يرجع إلى حسن تدبير السفير حجة الإسلام والمسلمين الأختري. ولأجل ذلك كانت الشيعة في حلب(وهم أربعة آلاف نفر) قد جاءوا إلى السفارة لأجل الاشتراك في المراسم، وقد أُغلق إثر الزحام أحد الشوارع الذي تطل عليه السفارة.

إنّ للقسم الثقافي للسفارة في دمشق نشاطات جيدة، مثل تأسيس المساجد في المناطق الشيعية كاللاذقية وحلب، وإرسال المبلّغين في المناسبات الخاصة. ونشر وتوزيع الكتب في سورية وبقاع أُخرى من العالم. وهذه الخدمات جميعها تمّت بفضل الإجراءات والتدابير الحكيمة للسفير الإيراني سماحة الشيخ الأختري، الذي استطاع خلال اثنتي عشرة سنة من الخدمة هناك أن يحافظ على العلاقات بين البلدين بمستواها الرفيع، كما استطاع كسب ثقة ساسة سورية وزعمائها.

وفي الليلـة الحاديـة عشر اشتركنـا في مجلس أُقيـم في السفـارة ألقى حجة الإسـلام والمسلمين الأختري خلاله كلمـة استفدنا منهـا، ثم غادرنا السفارة لزيـارة مرقد السيدة زينب عليها السلام ورقية بنت الحسين بن علي الواقع في نهاية سوق الشام، وقد أشاد الجميع بالبناء الجديد للحرم.

تفقدنا قبل الظهـر حوزة الإمام الخميني رحمه الله التي تـدار من قبل السيـد الطبـاطبـائي. وبعـد الاشتراك في صـلاة الجمعـة التي أُقيمت بـواسطة الصديق القـديم حجة الاسـلام والمسلمين السيد المهـري، استرحنا في السفـارة لنغـادرها إلى المطـار غـروب السبت الموافق ٩/ ٤/ ١٩٩٨م(١٢محرم/ ١٤١٩هـ) قاصدين طهران.

والحمد لله رب العالمين

أشكر الله الذي رزق عبده الحقير القدرة على إلقاء الخطب والمحـاضرات في مـراكـز ثقـافيـة وعلميـة خـلال فترة قصيرة ﴿**وَما تَوفِيقي إلاّ بِالله عَلَيْهِ تَوكَّلتُ وَإليهِ أُنيب**﴾ .(هود/ ٨٨)

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

جعفر السبحاني

٢٨ ربيع الأوّل/ ١٤١٩هـ.ق

فهرس المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة